بسمة عبد القادر

رواية

اشتباه

اشتباه

رواية

الكتاب : اشتباه
المؤلف : بسمة عبد القادر
تصميم الغلاف : محمد مجدي
مراجعة لغوية: هبة النجار
رقم الإيداع : 2015\19612
الترقيم الدولي : 5-26- 6495-977-978
***
دار الميدان للنشر و التوزيع
جمهورية مصر العربية
هاتف 0552311408 / 01224245429
Website: www.daralmidan.com
E-mail: almidan@daralmidan.com



جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، و أي اقتباس أو اعادة طبع أو نشر دون أخذ موافقة كتابية من دار الميدان فإن ذلك يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

اشتباه

بسمة عبد القادر

"إهـداء"

إلى من بعثت روح الكتابة بداخلي .. إليك باقة من صفاء الود ووحي القلم و إلى كل من يُبحر بين سطور الرواية لك مني خالص المحبة ودعوات السعادة المزدانة بالورود .بسمة عبد القادر

بسمة عبد القادر

اشتباه

"ثمة أخطاء لا يواريها الندم ..

يتجرع الإنسان مرارتها في كل كأس"

تذكر صوتا كساه الأنين ..

وعينا يسامرها البكاء ..

تذكر وعودا باتت هباء ..

وأملا طوته عيون الربيع ..

فأخذ يهرول خلف الشتاء .

-1-

ديسمبر 1983م.

ليلة صاخبة.. طرقات عنيفة من الرعد.. تقرع أمطار غزيرة تصطدم بضراوة بكل ما يقابلها في طريقها للأرض، كانت الطُرقات خالية تمامًا من المارة في تلك الساعات المتأخرة من الليل، فيما عدا (أحمد) الذي عَمد مرتجفًا على ناصية الشارع المنغمر بالمياه، دافنًا رأسه في معطفه الصوف، مختبئًا تحت مظلة أحد الحوانيت الموصدة، ملَّ من انتظاره الطويل حتى جاءت أخيرًا. كانت تهرول في فزعٍ بجسد نحيف يتشنج مع ارتجافات البرد، كل ثانيتين تنظر خلفها كأن هناك من يطاردها، لمحها (أحمد) على قارعة الطريق فرفع يده ملوحًا، سارعت بخطواتها تجاهه حتى زفرت أنفاسها المكتومة بشهقة حرة استمدت جرأتها بين يديه، سألها:

ـ "اتأخرتي ليه يا (نادية)!؟"

ـ "استنيت لحد ما ناموا، وهربت بسرعة"

ـ "حد شافك؟"

ـ "مش عارفة.. أنا خايفة أوي يا (أحمد)"

ـ "طيب يلا بينا نمشي من هنا"

هرولوا إلى الطريق الرئيسي مع احتدام غزارة المطر الصاعق لجسديهما كجلدات السوط، بالكاد صمدت أقدامهم حتى انتشلتهم عربة تاكسي أشفق سائقها على انتظارهم تحت طَرقات المياه

المتلاطمة، أقلهم إلى العنوان الذي دله عليه (أحمد)، لم تكن المسافة كبيرة إلا أنها في أعينهم قطعت ساعات، أو هكذا ظنًا مع هواجس القلق التي تصفعهما منذ شرعا بتنفيذ خطتهما، ساقها (أحمد) لشقته الجديدة، كانت شقة بالية، وأثاث قديم متهتك يشي بالوضع المادي البائس لـ(أحمد)، تخلل الأمان أوصالهما منذ وطآ عتبة الشقة، وما إن خلع كل منهما معطفه المثخن بأحمال المطر، حتى ارتمت (نادية) بأحضان (أحمد) في اشتياق، اعتصرها بين ذراعيه بقوة كأن لسان حاله "منذ الآن لن يفرقنا أحد"، لم تمر ثوان حتى تنبه إلى أمرٍ كاد يغفل عنه فأخذها من ذراعها إلى غرفة مجاورة، كانت الغرفة تتكدس بعدد كبير من اللوحات المرسومة ببراعة فنان، تعرقلت قدماها بفرش التلوين المتناثرة على الأرض حيث تعمرت الغرفة بالفوضى، الأمر الذي عهدته عن (أحمد) الذي لم يعرف نظامًا قط، أو يعترف بمعتقدات أو قوانين، لم تكن حياته سوى إبحار دائم بين لوحة الألوان وخيال الرسام. انتهى عبورهما أمام ملاءة بيضاء تغطي هيكلًا مربعًا تحتها، رفع (أحمد) الغطاء ليَسبر عن لوحة أنيقة لوجه باسم يحمل نفس ضمة الابتسامة التي صبحت وجهها منذ لحظات، كانت أنامله دقيقة بخطوط الرسم للدرجة التي أشعرتها بأن روحًا حية تطل من باطن الورق، شعرت وكأنها تتطلع لنفسها في المرآة، امتطت سعادتها جوادًا محلقًا بجناحين نحو السماء بالمفاجأة التي أعدها لها حبيبها، فأرادت أن تكلل تلك السعادة بالخبر الذي تاقت أن تعلن له عنه منذ أيام، وها قد حانت اللحظة المناسبة، ثقبت عينيه في عمق بنظرات بشوشة، كان منتشيًا بسعادتها التي أقرت بموهبته كفنان لا غبار عليه، أفصحت عن خبرها السار:

- "(أحمد) أنا كمان عندي ليك مفاجأة"

ـ "بجد!؟ إيه هي؟"

ـ "أنا حامل"

لم تكن مفاجأة، بل كانت صاعقة مدوية لـ(أحمد)، شعر إثرها بخلل ما في توازنه، انتزعت البرودة دفء أطرافه على غرة، وانسلت الفرحة عن ملامحه التي حل محلها العبوس، واتسعت حدقتا عينيه بلؤم متسائلًا:

ـ "حامل إزاي!؟"

ـ "حامل زي أي واحدة حامل.. إنت مش فرحان إنك هتبقى أب!؟"

حاول (أحمد) أن يُدسر ردة الفعل تلك التي انطلقت منه بعفوية قبل أن تلحظ غضبه المستتر. استخرج ابتسامة عنوة حتى يدرأ عنها تسلل الشك:

ـ "طبعًا فرحان.. بس مكنتش مصدق.."

ـ "طيب هنتجوز امتى؟"

ـ "قريب أوي.. أومال أنا اشتريت الشقة دي ليه!؟.. علشان نعيش فيها لحد ما أبيع اللوحات، وظروفنا تتحسن"

كانت (نادية) في غمرة سعادتها، وزهوة الاطمئنان بكل وعوده لها منذ عرفته، والتي أشرفت على تحقيقها، أخيرًا ستعيش مع من سلب قلبها، وهجرت عائلتها لأجله.

مرت أيام حفتها السعادة والعشق مع (أحمد) الذي قرنت حياتها به منذ وطأت قدماها شقته، عَرفَّها لجيرانه على أنها زوجته، الأمر الذي

رسّخ ثقتها به، الآن لم يعد ينقصها شيء سوى أن يُعترف بزواجهما بموجب عقد شرعي، ظلت تحث (أحمد) يوميًا على الوفاء بعهده معها، وهو يهادنها بتجديد العهد، ويمنيها بتحقيقه، إلى أن جاءت اللحظة التي ترقبتها، أخبرها (أحمد) أن تَعُد نفسها لهذا اليوم ليصحبها إلى المأذون، وخرج لملاقاة صديقيه اللذين سيقومان بالشهادة على العقد كما أخبرها، كادت تطير فرحًا من شهامة حبيبها وصدقه معها، إلا أن اليوم أوشك على الانقضاء، ولم يظهر (أحمد) منذ الصباح، تخلل القلق إلى قلبها المهشم بأعاصير الشك، طال انتظارها حتى أغشاها النعاس، استيقظت في صباح اليوم التالي دون جديد، اخترقت طلقات الخوف عقلها، نازعتها فكرة أن يكون أصابه مكروه، ولكن كيف لها أن تعرف!؟ لم تستسلم لمصيدة الانتظار فخرجت للبحث عنه بالأمكنة التي يرتادها عادة، لكنها لم تجده بأي منها، عادت بخيبتها للشقة، وهي لم تعي بعد حقيقة ما يجري معها، لبثت على حالها البائس لأيام دون أن يظهر (أحمد)، آلمها التفكير فيما كانت حياتها قبل اختفائه، وما آلت إليه الأمور الآن، يالها من حياة! في برقة عين تبدلت أيامها السعيدة بأخرى قاتمة، كانت لعبة متقنة للقدر الذي ظنت أنه عبث بها وبحبها، كانت تظن أن قصة حبها ستكلل بالسعادة على عكس الروايات الشهيرة التي قرأت عنها وأودت بأصحابها إلى التعاسة والشقاء، وها هي الآن تحذو حذوهم وتجثو على حافة الهاوية، أُقتُلعت خواطرها مع طرقات الباب، هرولت لفتحه لعل القدر أشفقَ على بؤسها، وصالحها ببشرى عودة (أحمد)، ولكن سرعانِ ما خاب أملها مع رؤية رجل غريب يستند بظهره على سياج السلم الخارجي، كان هو السائل عن حبيبها بعد أن ظنت به المجيب الذي سيخمد تأجج حيرتها، أخبرته أنه سافر لفترة، آثرت أن لا تُفصح عنِ حقيقة اختفائه؛ لعل في ذلك سلامتها،

أخبرها الرجل أنه صاحب الشقة، وأن (أحمد) استأجرها منه لشهرين، وها قد انقضت المدة، وعليه أن يجدد الإيجار، أو يُخلي الشقة. كانت صفعة جديدة أن تكتشف أمر الشقة المؤجرة بعد أن صدَّقت حبيبها عندما أخبرها بامتلاكه لها، والآن الأحرى بها أن ترى نفسها على حقيقتها، لقد كانت صيدًا سهلًا لصياد محترف، خُدعت ببراءة الحب وهالته المتلألئة، لم تكن تعلم أن هناك قلوبًا لا تعرف من الحب سوى إشباع رغباتها وأنانيتها، لم تكن تعلم أن هناك قلوبًا تتدفق بالماء البارد، وتلتحف بالأحجار، اتفقت مع الرجل أن يمهلها أيامًا أخرى، حتى تدبر أمورها، وخاصة أنها لم تعد تملك مالًا تنفق به على نفسها، قررت الخروج للعمل، ولكنها انتبهت إلى ورطتها الجديدة بعد أن تركت دراستها في السنة الأخيرة للثانوية لتفر خلف (أحمد)، شعرت كم كانت غبية عندما ارتمت في أحضان حبها كالشاة، لم تفكر بدراستها التي تنازلت عنها، وعائلتها التي هجرتها من أجل وهم زائف، وعليها الآن أن تقرر طريقا آخر غير أن تعود إلى أهلها، فهي تعلم المصير الذي ينتظرها عند عودتها، لن يتركها أبوها لتلفظ نفسًا آخر في هذه الحياة خاصة مع أفكاره المنغلقة، وممارساته الصارمة معها وأختها، لذا ما كان منها إلا الاستسلام لتصريف القدر لتواجه وحدها واقعها الجديد، ولتعي درس خطيئتها بأن هناك أخطاء لا تغتفر من قلوب الأرحام، ولا تُمحى من ذاكرة الأيام.

اشتباه

"إحساس الوحدة هو موت بطيء..

هو مشاعر تندثر في جوف العدم..

هو وجع لا يُسمع..

وحروف لا تُنطق..

هو عقل يتغذى على ملايين الوساوس السلبية

هو أحلام عاجزة عن التحليق"

-2-

ابريل 2013م

"يا من صورت لي الدنيا كقصيدة شعر.. وزرعت جراحك فى صدري وأخذت الصبر.. إن كنت أعز عليك فخذ بيدي.."

علا صوت التلفاز بتلك الكلمات الخالدة بصوت العندليب بينما كانت ملقاة بجسدها على الأريكة التي تتوسط غرفة الجلوس، تدب فى براثن نوم عميق تُلقي بنفسها بين خمائله كل عطلة بعد جهد متواصل من العمل طوال الأسبوع، يؤنسها صوت التلفاز بضجته المعهودة التي لا تعي منها أي شيء، إلا أنها بحاجة إلى سماع صوت آخر غير صوتها بهذه الشقة الموحشة الكائن بها نفس واحدة تختلس الأوقات بين الحين والحين للانفراد بالخلوة معها، لمحاكاتها عن محطات الماضي ووحدة الحاضر، وتطلعات المستقبل في طعن هذا الشعور المميت بأنها تحيا بصحبة نفسها ولنفسها، لا تستأنس بسماع صوت إلا خواطر عقلها، ولا تُبصِر أحدًا إلا هيكلها أمام المرآة، منذ وفاةَ والدتها قبل عامين وهي تُطعَن بخناجر الافتقاد، وتلتحف بمرارة الوحدة التي تضاجعها كل ليلة بشهقات دامية من البكاء والحنين، كانت تجاهدها باستدعاء النوم، لتُعجل تلك الساعات التي تفصلها عن نهار يومٍ جديد تختلط فيه بزحام الحياة، وصحبة الأصدقاء بعيدًا عن هذا الموت البطيء الذي تواعده كل ليلة.

تداعى صوت العندليب مع دوي طرقة قوية صدرت من غرفة نومها، انتفضت من أريكتها في فزع ورجفة تؤازرها الدهشة، إن كان لا أحد سواها فى تلك الشقة التعسة، فمن أين أتى هذا الصوت!؟ حبست

أنفاسها للحظات في مجاهدة منها للتنصت لعلها تتحسس صوتًا جديدًا يطرق آذانها، لكن لا شيء، تساءلت أيكون مصدر الصوت من اختلاق عقلها المتعطش لمؤنس!؟ عزمت أمرها للتخلص من وساوس حيرتها، فتسللت بخطى حذرة مرتعشة باتجاه غرفة نومها حيث خُيل لها أن مبعث الصوت أتاها من هناك، ما لبثت أن تقترب من الباب وإذا برجلٍ ضخمٍ تختفي ملامحه تحت قناع جلدي أسود يبادرها بدفعة قوية للخلف، طرحتها أرضا فاقدةً للوعي بعد اصطدام رأسها بأعلى زاوية دولاب الخزف الخشبي الراقد أمام الغرفة، تصلب الرجل بمكانه، تحتدم علامات الصدمة بعينيه الخضراوتين المطلة من سواد القناع، بدا من انفعالاته أن خُطته لم تكن تضع اعتباراً لهذا الفعل الذي ارتكبه للتو بلا تعقل، ظلت قدماه ثابتة في مكانها ترتعش من حيرة اللاحيلة قبل أن يقرر أخيراً الفرار بسرعة، وأثناء ارتياده لأرجاء الشقة بخطواته العشوائية انتزع قناع وجهه وكذلك القفاز الجلدي من يديه، وغمسها جميعًا في أحد جيوب سترته الجلدية مهرولًا للخارج، هبط درجات السلَم بلمحات شبه مرئية حتى وصل إلى مدخل العقار، وعيناه تُفتشان يمينًا ويسارًا عن حارس العمارة الذي انتهز فرصة غيابه في قضاء بعض حاجات السكان، مهدت له الظروف الفرصة عندما لمح بطرف عينيه قدوم الحارس من طرف الشارع على مسافة ليست ببعيدة، فهرول هاربًا بعبور الطريق قبل أن يلمحه، ومع خفقات الفزع التي ضللت عقله، لم ينتبه لاندفاع سيارة هوجاء صدمته دون اكتراث، رفعته لأعلى مع دوران جسده في الهواء حتى كومته صريعًا على الأرض في برقة عين، انبعث عن الصدام دوي فرملة قوية جذبت انتباه الحارس الذى أمسى على مسافة وشيكة جدًا من الحادث، حيث لمح سيارة تتوقف لثوان معدودة، ثم انطلق قائدها مسرعًا قبل أن يدركه الحارس

متحاشياَ التورط فى مُساءلة قانونية، تاركًا خلفه جثة ملقاة بوسط الطريق تحمل هوية مجهولة لصاحبها. ارتعد الحارس للمشهد المروع، كان الظلام قاهراَ لإنارة الأعمدة الخافتة المتراصة على طرف الطريق، مما أعْجَزَ بصره عن التقاط رقم السيارة، بالكاد تعرف على لونها الأسود، بالإضافة إلى أن ثقافته لم تختمر بحفظ هذا النوع من السيارات، صرخ على سكان العمارة الذين انتفض بعضهم إثر صوت الصدام ليحثهم على طلب النجدة، اتجه على حذر لتفقد الجثة متلافياَ أي حركة للمسها قبل قدوم الشرطة.

22

"بأي درب أو بضيق

عندي صديق

على شفا الحُلم الأنيق

يحدوني دومًا بالبريق

ويبث في قلبي رحيق

مهما يحاصرني المضيق"

-3-

تحت عباءة الظلام الدامس للغرفة، انشق نورٌ طفيف من الهاتف الراقد على الوسادة بالقرب من رأسها، اهتز الهاتف بمصاحبة نغمة رقيقة تنم عن ذوقٍ فريد لصاحبة الهاتف، دقيقة واحدة اتسعت فيها الغرفة الساكنة لأصداء الكمان المنبعثة من موسيقى الفصول الأربعة لـ(فيفالدي)، ثم تبعها صوت عذب يلتحف ببحات النعاس للجميلة النائمة، بنبرة ناعسة مضطربة على غير عادتها تتلقى مكالمة تجاوزت منتصف الليل بعيون تائهة وحيرة مغلفة بالقلق، مشاعر ريبة ارتسمت على ملامحها المسدلة بخصلات النوم بعد رؤية اسم المتصل، تهافتت للإجابة على الفور:

- "(سلمى)!! مال صوتك!؟"

يعود الصمت للغرفة لتتسع عيناها المُختَطفَة، وتتوسد خطوط الفزع ملامحها، فتصدر شهقة محتقنة بين صدرها وأنفاسها، أردفت حديثها المتقطع:

- "إيييييه!!؟ طيب انتي بخير!؟.. اطمني يا حبيبتي دقايق ونكون عندك"

ضغطت زر الهاتف، وطرحته جانبًا، ثم انتفضت تاركة فراشها الوثير، هرولت إلى خارج غرفتها تتجول بعشوائية في أركان الشقة، اهتدت خطواتها إلى أحد الغرف التي نفذت منها أصوات نقرات على مفاتيح الحاسوب، نادت بصوت مضطرب:

- "(إسماعيل)! (إسماعيل) انت هنا!؟"

ـ "أنا هنا"

وجدت (إسماعيل) جالسًا على الأريكة الكبيرة بمواجهة مدخل الغرفة باسطًا قدميه أمامه على طاولة صغيرة تتوسط غرفة الجلوس، وفوق فخذيه يرقد حاسبه المحمول، كدأبه كل ليلة في تتبع الأخبار، كانت خطوط الجدية اللينة تتخلل بشرته النحيفة المتشربة بلون تربة النيل الهادئة، ويطل منها أنف دقيق يُحاكي بقية ملامحه الدقيقة، تنبت ذقنه بشعيرات خفيفة ناعمة تنساب حتى أطراف أذنيه لتلتقي مع سواد شعره الكثيف المتلألئة نعومته تحت إنارة الغرفة، ويعلو فمه شارب ناعم خفيف كذلك. كان (إسماعيل) غارقًا بعينيه الواسعتين في تفقد ما تجود به الشاشة المُختطفة أبصاره دون أن ينتبه لاضطراب زوجته المقبلة عليه في فزع.

ـ "نعم يا حبيبتي"

أجاب نداءها بهدوء دون أن يرفع بصره عن الشاشة، ودون أن ينتبه لخلسات الرعب المختلطة بعبوس ملامح زوجته المرتعدة.

اقتربت منه حاملة الحاسوب من بين يديه، ووضعته على الطاولة الراقدة عليها قدماه، نظر إليها بذهول دون إبداء أي حركة كردة فعل في انتظار ما ستجود به من تفسيرٍ لتصرفها الغريب، جذبت ذراعه بكلتي كفيها لتحثه على الوقوف، ثم صرعت مسامعه بصوتٍ متهدج:

ـ "(إسماعيل) قوم بسرعة! (سلمى) اتهجم عليها حرامي وهرب"

ـ "دا مش وقت هزار"

ـ "أنا بتكلم بجد!"

تسللت قبضات الذهول إلى وجهه دون أن يفقد تماسكه المعهود، أو يُنتزع من يقظة أفكاره الصحوة، خفقات من القلق اعترته لبرهة تخلص منها سريعًا، اعتاد أن يسمع مثل تلك الوقائع في عمله بشكلٍ دوري، ولكن ما أثار دهشته أن تُداهم إحداها حياته الهادئة.

هاود (إسماعيل) حركات جذب زوجته الفزعة لاقتياده إلى خارج الغرفة، وبعد أن لملم تركيزه لحقيقة الموقف، طرق عقله سؤال:

- "وانتِ عرفتي إزاي!؟"

- "هي كلمتني حالًا، وصوتها ما يطمنش.. أنا قلقانة أوي عليها.. يا (إسماعيل) يلا ما تضيعش وقت، أنا مش قادرة أتلم على أعصابي"

أطلقت يده من قيد كفيها، وأسرعت لتبديل ملابسها، بينما كان لم يزل متسترًا بزي عمله منذ عودته للمنزل.

- "طيب طيب.. البسي بسرعة، وأنا هستناكي في العربية"

قال (إسماعيل) محتضنًا حالة تمزق المشاعر التي تعتريها: "(سلمى) هي الصديقة التي أهداها لها القدر قبل عام بعد أن انتقلت للعمل معها بنفس المكتب، ولم تمر أيام قليلة عقبها حتى تخللت حياتها بانسيابية أفزعته من فرط تطورها، أصبحتا متقاربتين حد الالتصاق حتى يُخيل إليه أحيانًا أن روحًا واحدة تتنفس في أوردتهما، كانتا متآلفتين بصورة أذهلته، لم يرَ مثل تلك العلاقة من قبل، حتى أنه كاد يتشكك من صدق مشاعرهما المنصهرة بالود، لولا أنه يتجرع من بئر الحنان المتدفق من زوجته، والذي أسبغ عطاياه على كل المحيطين بها ولا سيما (سلمى)، كأنهما كانتا معبأتين بتلك المشاعر من اللهفة ونوبات الاحتياج إلى الاحتواء التي تلتهب بها طاقات المراهقات

الجامحة، لم ينكر التغيير الذي حل بحياته وزوجته منذ إقحام (سلمى) في طياتها المنغلقة قبل المعلنة، كان لظهورها بالغ الأثر في بعث روح السعادة بينهما بعد أن اغتالها الملل خلال الفترة التي سبقت بزوغ تلك الصداقة، وخاصة أنه وزوجته لم ينعما بالذرية بعد، اعتادا مشاركة (سلمى) لهما في كافة المناسبات، ولم يتعكر ذلك الصفو في علاقتهم قبل تلك الليلة القاحلة التي لم توضع في الحسبان"

كانت خواطره مضطربة منذ علم بالحادث، فتح باب الشقة، وغادر إلى السيارة بانتظار زوجته.

اشتباه

اشتباه

"عندما يغزوك الحنين.. يرتحل خاطرك بمواقف طبعت ولم تمحى من ذاكرتك.. مهما عتا عليها الزمن تبقى خالدة من فرط صدقها"

اشتباه

-4-

في ساعات الليل الأخيرة حيث وقع الحادث، اكتظ الشارع بالضجيج بعد تجمهر عشرات الأشخاص، وأغلق طرفي الشارع بعربات الشرطة. كان يقف في مدخل العقار تجمع مكون من ثلاثة رجال، أحدهم حارس العقار الذي دنا عمره من الأربعين والذي صاحب وفد الشرطة منذ قدومهم، سرد القصة بإسهاب للرجلين الآخرين دون زيادة أو نقصان، بِدءا من ذهابه لشراء احتياجات لأحد السكان، وحتى صاعقته بوقوع الحادث، واستغاثته لطلب النجدة. أما الواقف الثاني والمنصت بنَهم لتفاصيل الأحداث كان شاباً في مستهل الثلاثين من العمر، شديد التأنق بداية من حذائه اللامع، وحتى شعيرات رأسه المصففة بدقة بالغة لتشّب لأعلى بزهو، لم يقل التركيز والجدية الخاطفان لملامحه عند سماَع رواية الحارس عن تركيز مساعده الواقف بجواره لتدوين كافة الملاحظات التي تطرق مسامعه، وكذلك تدوين كل ما يقبع في دائرة نَظره من مشاهد بمدونة صغيرة ترقد بين يده اليسرى.

في غمرة هذا الاجتماع المفتوح توقفت عند ناصية الشارع سيارة (لانسر) رمادية اللون (ملاكي القاهرة)، يعرفها الشاب المهندم تمام المعرفة، اشرأبت نظرات الواقفين مترقبين خروج قائد السيارة، بينما تصلب نظر الشاب المهندم عند باب السيارة الأيمن الذى فُتح أولًا لترتقي منه امرأة ليست بمجهولة عنه، إنها نفس المرأة صاحبة الوجه الملائكي الهادئ والعينين الضيقتين، المُشرقة بالأمل والحنان، وبزيها

المحتشم، وحجاب الرأس القصير المتناسق مع فخامة ملابسها التي لا تقل فى أناقتها عما يختاله بنفسه من أناقة، دار حديث فى رأسه..

ـ "(نغم)!! و(إسماعيل)!! بيعملوا إيه هنا في الوقت المتأخر دا!؟"

انطلقت المرأة مبتعدة عن السيارة بخطوات مرتجفة مسرعة خطفت أنظار الواقفين، تبعها زوجها مباشرة إلى ناحية التجمع عند مدخل العمارة، بدت ملامح الارتياح على وجه (إسماعيل) بمجرد رؤية الشاب الذي بادر إليه بابتسامة ترحيب وكفٍ منبسط لإلقاء التحية.

بادله (إسماعيل) التحية قائلًا:

ـ "(يحيى).. الحمد لله إنك هنا.. إيه اللي حصل؟"

أجاب (يحيى) بإيجاز رجال الشرطة فى مثل هذه الحالات الحرجة، وبصوت مفعم بالثقة والجدية:

ـ "جالنا اتصال بحادثة تصادم، وفيه جثة لحرامي.. لكن انتَ بتعمل إيه هنا!؟"

تساءل (يحيى) بدهشة يصاحبها الشك.

لم يُجب (إسماعيل) كأنه لم ينتبه للسؤال، غلبه الفضول لطرح سؤال آخر:

ـ "عرفتوا منين إنه حرامي!؟"

ـ "كان معاه مجوهرات وفلوس، دا غير إنه واضح إنه كان بيهرب من العمارة، وعربية خبطته زي ما انتَ شايف في موقع الحادثة"

أجاب (يحيى) موضحًا التفاصيل.

تلقى (إسماعيل) الإجابة رامقًا زوجته القلقة بنظرات عطف ومواساة، التقط من عينيها تساؤلات تتجمد في جوفها، وتتحرج في الإفصاح عنها، فبادر بسؤال يكشف عن سبب تواجدهم المثير للغرابة:

- "عرفتو الشقة اللي سرقها ولا لسه؟.. إحنا هنا لأن لينا صديقة ساكنة في العمارة، وجالنا منها اتصال إن حرامي اتهجم عليها"

شهق (يحيى) بشغف كمن قبض على غايته، متسائلًا:

- "إحنا لسه بنستجوب الحارس، وما اكتشفناش الشقة المسروقة.. هي في أي دور؟"

- "الدور السادس.. ممكن نطلع نطمن عليها، ونشوف إيه اللي حصل.. احتمال يكون عمل فيها حاجة"

اقترح (إسماعيل) على الحاضرين، وكل ما يتعارك في خاطره إخماد النيران المتأججة بقلب زوجته، وحقن وريد تساؤلاته بمُسّكِن الكشف عن حقيقة ما حدث.

استجابَ (يحيى) فوراً لتوصية (إسماعيل) بالتحرك، أشار بيده مستدعياً مساعده:

- "تعالا معانا يا (حسن)، ونادي على باقي القوة"

ارتقى البعض المصعد بينما ترجل الباقون مسرعين بالصعود على درجات السَلم.

كانت سلمى جالسة على الأريكة الكبيرة المواجهة لباب شقتها الذي لم يوصده أحد بعد فرار السارق، بدت حالتها النفسية والجسدية مروعة إلى حد كبير؛ فلازالت نوبات الدوار تتقاذفها بعد صحوتها من الإغماء مع أوجاع لاذعة تتعارك في أحشائها لم تدر ما كنهها، انهمرت دموعها من شدة الألم القابض على ذراعها الأيمن الذي تعجز عن تحريكه دون التفوه بصيحات ألم، وعلى الرغم من هذا الحال لبثت في صمودها بانتظار من ينتشلها من تفاقم تلك الحالة التي لم تمر بها منذ وفاة والدتها، مما أوقد فتيل الذكريات التي بعثت إحساسها المؤلم بالوحدة، لم تكن تدري أي ألم كان الأشد في منافسة اعتصارها، الوجع المضرم في أنحاء جسدها، أم افتقادها لمن يحتويها بتلك اللحظات الصعبة، كانت الابنة الوحيدة المدللة لأمٍ سَخَّرت كل حياتها للاعتناء بها، وأب دائم الترحال من بلد إلى آخر، لم تره في حياتها سوى مرات معدودة، لا تتذكر من لقاءاتها معه إلا أحاديث ساذجةً عن طموحات أقرب أن تكون إلى الانحراف منها إلى العقلانية والاستقرار، كانت ترى فيه الأب الأناني الذي يترنح خلف أهوائه، ويختلق آلاف المبررات لإقناع نفسه بقيمة طموحاته الفاشلة والتي لا تخدم أحدا في هذا العالم إلا رغباته العابثة، ومع حقدها الكبير على هذا الرجل الذي لم يُعلِّمه أحد قط معنى المسؤولية، إلا أنها ورثت عنه الكثير من ملامحه الآسرة، فلها نفس اتساع العينين بلونهما العسلي المحترق، تحلق فوقهما بغزارة أهداب سوداء طويلة معقوفة لأعلى عند أطرافها، ولها نفس الوجه الطويل الذي تكسو دقائقه الفاتنة بشرة فاتحة، يبرز منها أنف دقيق يشب طرفه لأعلى، ونفس الفم المتسع بجاذبية. لم يترك لها القدر سمة من والدها إلا أودعها إياها، حتى عتمة الشعر اللامع المتهدل، والنظرات الجادة، والابتسامة الساحرة، كل قطعة منها وُجدت لتُذكرها بأن هذا الرجل

الغريب أقرب من أن تنكر وجوده في حياتها، خاصة أنها تشعر أحيانًا بالغبطة لصفة اكتسبتها من وراءه، وهي التظاهر بالصلابة مثلما تحاول جاهدة الآن من صمود، على عكس ما يتفجر بداخلها من وهن واحتياج انطلق معلنًا عن نفسه بحرية بمجرد أن رأت (نغم) لدى الباب، أقبلت عليها في لهفة مصحوبة برثاء لقسوة ما رأته من حالة الاهتراء التي تتلبس صديقتها، احتضنتها برفق؛ فهي لا تعلم ما تكابده من ألم، وبالرغم من حاجة (سلمى) لهذا الاحتواء إلا أنها شعرت بأن القَدَر أبَى أن يمهلها تلك اللحظات الحانية دون أن تشعر بالألم في ذراعها، صرخت (سلمى) بحدة مبتعدة بجسدها للوراء:

- "آآآآه.. دراعي.. مش قادرة أحركه!"

تراجعت (نغم) عن ملامسة ذراعها الموجوع، أشفقت على وضعها، ووحدتها التي أنّبت عليها نفسها، كانت (نغم) من هؤلاء البشر الذين يُحمّلون أنفسهم هَمّ أوجاع الإنسانية، حتى أنها كانت تخجل من نوبات سعادتها في أوقات الحزن التي تغتال أحد أفراد عائلتها أو معارفها، حاولت التخفيف عن (سلمى)، فجلست بجوارها، ورفعت خصلات من شعرها للوراء لتبدي نصف وجهها المتواري خلفه، فاكتشفت جرحا آخر أعلى العين اليسرى يبدو أن صاحبته لم تكن تشعر به من شدة الألم في ذراعها، التقطت (نغم) منديلًا من على طاولة صغيرة مجاورة للأريكة التي تضم جلستهما، أخذت تضغط برفق على الجرح، وتمسح مجرى الدم المنساب على وجنتها، كان هذا المشهد على مرأى ومسمع كل من (إسماعيل) و(يحيى) الذي لا تجتذبه تلك المشاهد الحانية، ويرى فيها مبالغة مفتعلة تتدلل بها الأنثى لاستجداء العطف ممن حولها. كانت جدية (يحيى) تطغى

على مشاعره الإنسانية في أغلب الأحيان، لذا تنّحت نظراته لما يخدم عمله في تفقد المكان، أما مساعده فمنذ الوهلة الأولى بدأ التجوال في أرجاء الشقة بصحبة بعض رجال الشرطة لكتابة ملاحظاته والتقاط الصور. لاحظ قُصاصة ورق صغيرة ملقاة على الأرض التقطها منادياً (يحيى) الذي استجاب فوراً لإشارته. تقدم إليه لتفقُّد القصاصة التي كانت تحمل رقم هاتف، وضع القصاصة في جيب سترته حتى يهتدي لسر هذا الرقم فيما بعد، أما (إسماعيل) انتابته الشفقة من وراء المشهد الإنساني الذي جذبه منذ الوهلة الأولى، أراد طمأنة (سلمى)، ودَفَعه حسه التحقيقي للاستفسار منها عن تفاصيل ما حدث.

- "اطمني هتبقى كويسة.. احكيلي ايه اللي حصل معاكي؟"

نظرت له (سلمى) والوهن يطفو بسطح عينيها، أرادت أن تُفصح عما علق بذاكرتها من أحداث:

- "سمعت صوت في الأوضة.. رحت أشوف في إيه.. لقيت قدامي راجل ضخم.. وبعدها ما حستش بحاجة.."

تلفظت الكلمات بصعوبة مُبدية عدم استعدادها لأي تحقيق، وكذلك (نغم) التي دعمتها برجاء لتأجيل الأسئلة:

- "(إسماعيل).. ممكن تأجل الأسئلة؟ انتَ شايف حالتها"

أومأ برأسه مبدياً قناعته بردة فعلهما، أنب نفسه على السؤال الذي لم يهدف من ورائه غير اختلاق دور ذا قيمة، نظر باحثًا عن (يحيى) ومساعده فلم يرَ أي ملمح لهما، لابد أنهما يتجولان بأرجاء الشقة لمباشرة عملهما، أصر على تقديم مساعدة يثمر بها عن تواجده

العقيم، خاصة أن القضية ليست في إطار عمله، ويتجنب إبداء الفضول بتفاصيلها الجنائية، فآثر حصر اهتمامه بـ(سلمى):

ـ "انتي محتاجة لدكتور.. هكلم (يحيى) يأجل التحقيق لحد ما نطمن عليك"

اقترح (إسماعيل)، متأهباَ للبحث عن (يحيى) الذي ظهر من وراء باب المطبخ، تَقدَّمٍ (يحيى) ناحيتهم، أما مساعده توقف أمام غرفة النوم ليلتقط صورا لقطرات دماء جافة التصقت بالأرض، خمنوا أنها لـ(سلمى) بعد تهجم السارق عليها، اقترب منه (إسماعيل) قائلًا:

ـ "(يحيى).. (سلمى) محتاجة دكتور زي ما انتَ شايف حالتها ما تسمحش بتحقيق دلوقت.. نطمن عليها، وبكرة هوصلها لحد مكتبك"

أومأ (يحيى) برأسه مُبدياً موافقته، وأضاف استعداده بعرض أي مساعدة ممكنة معبراَ عن تقديره لصعوبة الموقف:

ـ "فاهم طبعًا.. على كل حال الواقعة واضح إنها سرقة.. علبة المجوهرات مرمية فاضية عالسرير، ومتقشطة من الدهب والفلوس.. وأكيد هم اللي لاقيناهم مع جثة الحرامي.."

التفت (يحيى) لأحد الرجال الواقفين أمام باب الشقة مناديًا:

ـ "هات اللفة اللي معاك يا (حسن)!"

تقدم إليه الرجل بلفة قماش سوداء، فك (يحيى) عقدتها، ثم تحرك باتجاه (سلمى) التي ما فتئت تجلس مكانها في سكون، فرغ محتوى قطعة القماش أمامها على الطاولة، وسألها:

- "دي الحاجات اللي اتسرقت منك؟"

انتبهت (سلمى) لسؤاله، وبتفقد سريع للأشياء المفترشة أمامها أومأت رأسها بالإيجاب دون أن ترفع عينيها عن الأرض، لمحت (نغم) وجهها المختلسة شحوبته، فأجابت نيابة عنها:

- "أيوة دي حاجتها.. دهب والدتها -الله يرحمها- أنا عارفاه كويس"

نادى (يحيى) على (حسن) ليجمع لفافة المجوهرات والمال مجدداً؛ لإضافتها لما جمعوه من أحراز، ثم وجه حديثه لـ(إسماعيل):

- "انت عارف الشقة لازم تتقفل لحد ما نكمل التحقيق.. هستناكم بكرة في مكتبي آخد أقوال (سلمى)، وتستلموا المسروقات"

لم تتمهل (نغم) للإعلان عن خطتها:

- "هناخد (سلمى) للدكتور، وهترجع معانا عالبيت لحد ذراعها ما يخف"

اندهش (إسماعيل) من خطة زوجته التي لم يتوقعها، كأنها ورطة لم يحسب حسابها، كأن صداقتهما تجاوزت الحد المقبول بالنسبة له، أتتطلب الصداقة مزيدًا من التضحيات، والاضطرار لهتك نظام اعتمدته حياته الزوجية لسنوات مع استضافة (سلمى) لعدة أيام!؟ كان يظن أن دوره سينتهي بمجرد معالجة (سلمى)، وانتهاء التحقيق، لم يخطر بذهنه أنها حقًا في حاجة لمن يعتني بها مع حياتها المنفردة، معترفا بينه وبين نفسه بأن هناك مواقف تكون النساء أكثر براعة من الرجال في محاكاتها، وإدارتها بحكمة بما يحاكي طبيعتهن العاطفية، خلال تلك الدقائق المارقة تيقن (إسماعيل) أن للصداقة مشاعر لا تُختزل بواجبات، من فرط الصدق الذي خُلقت منه تنصهر أرواح

الأصدقاء في روح واحدة لأكثر من جسد، حتى يظنهم المحيطون قد خُلقوا في رحم واحد. لم يكن منه غير الانصياع لاقتراح (نغم) مع شعوره بالشفقة تجاه (سلمى) التي تعاني قهر الوحدة:

- "طبعًا.. حضَّروا اللي هتحتاجوه"

قال (إسماعيل) قبل أن يخرج بمصاحبة (يحيى) والمساعد، أما (نغم) فعاونت (سلمى) على النهوض لتُحضِر من احتياجاتها ما يكفي للمبيت في منزلها عدة أيام.

تأهبا للمغادرة بصحبة (إسماعيل) بعد انتهائهما، والتأكد من غلق الشقة بعد تفحص رجال الشرطة لكل بقعة فيها، كانت سيارة الإسعاف متواجدة عندما هبطوا للشارع، استقبل المسعفون (سلمى) لعمل إسعافات سريعة على جُرحها مع إيثار (إسماعيل) نقلها لمشفى خاص لمعالجة كسر ذراعها، صاحبهم (يحيى) إلى سيارة (إسماعيل)، وودعهم بعد التأكيد على موعد لقائهم في الغد لاستكمال التحقيق.

اشتباه

"أول لبنات الغضب..

شظية بركان

يتضخم حد الغليان

ثم يتدفق عفويًا

ليفجر ثورة إنسان

يعقبه ندم فـ يُهان

لا تطب جروحٌ أو تُشفى

من بعد صراخ الكتمان"

-5-

بعد مطاردة طويلة صحبتها المخاطر، توقفت سيارة (أودي A4) سوداء في ساحة المنزل الكبير للعائلة، ترجل منها شاب فى قمة الوسامة والتأنق بحلته الرمادية، باد عليه التعجل في خطواته، ولج إلى المنزل واتجه مباشرة إلى غرفة المكتب المضاءة بإنارة خافتة، فتح الباب ودخل بلا تردد، حيث كان يجلس خلف مكتب مكتظ بالملفات والأوراق المبعثرة رجل كهل تختطف التجاعيد ملامح وجهه العابس، تبدو على الرجل سمات الوقار والجدية المنبعثة من عينيه الثاقبتين خلف عدسات نظارته المقعرة، برزانة الحكماء توقف الكهل عن التحديق فى الورقة القابعة بين يديه تاركًا إياها، حدق ببصره إلى زائر آخر الليل الواقف أمامه، كانت دهشته متوارية خلف وقاره من هذه الزيارة الطارئة في هذا الوقت الذي تعانقت عتمته بخيوط النهار. سأل الشاب بتهكم:

ـ "طبعا هو دا الوقت المناسب لزياراتك يا (ياسر) بيه! أظن كفاية أوي سهراتك اللي ما بتنتهيش"

جلس (ياسر) على المقعد المقابل للمكتب بهدوء بارد، وكأنه لم يسمع كلمات التوبيخ التي استرسل بها الرجل في حقه، اقترب بوجهه قليلًا ناحية الكهل كالموشك على الإفصاح بسر، تحدث بصوت مفعم بالارتياح والثقة:

ـ "يا عمي أنا بشتغل 24 ساعة كل يوم، وكل مسؤولية الشركة على دماغي.. وبعدين حضرتك عارف إن كل تفكيري شغل وبس.. وماليش في أي حاجة تانية ممكن تسيء لسمعة العيلة"

اتسعت حدقتا الرجل باستنكار مُعرباً عن عدم رضاه:

ـ "انتَ شاب طموح ومجتهد، ودا كان السبب الوحيد في موافقتي على جوازك من بنتي.. لكن دا مش معناه إنك تخليها تعاني من إهمالك ليها.. طول الوقت بتشتكي من غيابك"

نهض الرجل من مقعده، واستمر وقوفه لثوانٍ مردفًا بالحديث:

ـ "حاول تختصر من وقت الشغل.. ما هو مش معقول إن فيه إنسان يتحمل ضغوط الشغل بالشهور من غير راحة!"

بدا لـ(ياسر) توجسات صهره، وعدم قناعته بحججه الدائمة للانشغال، كان يعلم أن صهره لم يُحبه منذ الوهلة الأولى للقائهما الأول، وأن قبوله لمصاهرته كان تحت ضغوط ابنه الحبيب، أو بالأحرى صديقه الوفي، وابنته المدللة التي نال شرف الزواج منها، لم يلمه يومًا على مشاعر الكراهية التي يحملها له، فهو نفسه لم يكن ليحلم يومًا بمصاهرة أكبر المحامين بالبلد في الوقت الذي لم يكن يجد سترة تقيه برودة الشتاء القارسة لضيق دخله وفقر معيشته، لهث لسنوات بعد تخرجه من كلية التجارة باحثًا عن عمل مناسب يحفظ كرامته، وينتشله من حياته الرثة، ولكن بلا جدوى، أخذ يتنقل خلال تلك السنوات بين ما كان يتعرقل بطريقه من أعمال متواضعة لا تلبي تطلعاته، حتى أهدى له القدر فرصة عمره بالعمل كمحاسب بشركة لتجارة السيارات، وخلال هذا العمل اقتطع له الحظ هدية كبيرة عندما التقى بـ(مازن)، كان (ياسر) متوجًا بالذكاء الجامح الذي أهلَّه لاستحواذ ثقة الشاب الثري، حتى فرض نفسه ليصبح أقرب أصدقائه، وشرع ببداية حقيقية عندما استقطبه (مازن) للعمل لديه بشركته، مما اختصر مسافات بعيدة التصقت بسلاسة لتمكنه من

الانغماس بعلاقات أكثر وداً بعائلته حتى اخترق قلب أخته، وبواسطة دعم (مازن)، وشباك الحب التي نصبها لها، لم يتردد (ياسر) في التجرؤ على طلب الزواج منها، ورغم إصرار الوالد على رفض هذه الزيجة إلا أنه لم يصمد طويلًا أمام إلحاح ابنيه الذين كانا على عكسه تماماً، كانا يريان في (ياسر) الشاب الخلوق المثقف الذي يمتلك من دماثة الخلق واللباقة وحسن الإدارة ما مكنه من الارتقاء سريعًا بمراتب أعلى بالشركة حتى جعل منه (مازن) شريكًا له بالإدارة، وبالفعل خنع الكهل للقبول، وتزوج (ياسر) من زهرة العائلة، وبانقضاء شهور قليلة بعد الزواج انشغل عنها في تنمية نفسه، وإشباع جوع طموحه الجارف لتحقيق حلمه بامتلاك شركته الخاصة، لذا لم يبد امتعاضًا لانتقادات صهره المستمرة، فالرجل كان محقًّا عندما اتهمه بإهمال زوجته وابنه، ولكن ما على الرجل الطموح إلا أن يقامر بكل ما يملك ليفوز بغايته التي يُسخِّر لها كل أفكاره وخططه وتوليه على سطوة عالمه.

شعر (ياسر) بالارتباك، ازدرد ريقه بصعوبة قبل أن يدافع عن نفسه أمام صهره، هذا الحكيم الذي يتزود عند لقائه بآلاف الحسابات والأعذار قبل السقوط في براثن نقاشاته التي لا تعرف نكهة للدعابة أو الهزل، فكان همه أن يغلق هذا الباب من الجدال بالشكل الذي يستحوذ به رضا الرجل:

- "عندك حق يا عمي.. أنا هعمل جهدي بس المهم تكون راضي عني"

لم يبتهج الرجل بتلك الإجابة، كانت تشككاته أكبر من أن يُصدق وعود الشاب الذي طالما ما وجد حائلًا يردعه عن التودد إليه، أو درء

منابع سوء الظن عنه، دومًا تحطم رياح الشك أي بادرة ارتياح تتسلل لقلبه من ناحية (ياسر) دون أسباب واضحة.

لملم الرجل بعض الأوراق المبعثرة على مكتبه، وجمعها بملف أودعه أحد الأدراج بالدولاب المجاور للمكتب، ثم عاد للجلوس في مكانه مرة أخرى، تطرق بنفس الجدية للاستفسار عن سبب الزيارة الغريبة:

- "ما قلتليش إيه سبب الزيارة الكريمة؟"

اعتدل (ياسر) في جلسته متأهبًا لإطلاع صهره عن سبب قدومه في هذه الساعة، لكنه لم يكد ينبس بكلمة إلا وقضبته رياح ثائرة اقتحمت الغرفة بمرافقة شاب هائج، هاجم الشاب (ياسر) بلكمة قوية في وجهه، انتفض (ياسر) في إثرها لردع اللكمات المتتالية، ومواجهة حركات الشاب الهجومية، واتهاماته الغاضبة:

- "يا سافل! انتَ السبب! والله ما هسيبك!"

تدَّخل الكهل لإنهاء الشجار المضرم لتوه، اقترب لجذب الشاب الثائر للوراء، استطاع أن يفرقه عن (ياسر)، وينحيه عن إصراره في مهاجمته، أجلسه على المقعد المقابل محاولًا تهدئته، نوبة جارفة من الغضب كانت تجتاح الشاب المتصبب عرقًا بأنفاسٍ محترقة تطرق مسامع الغرفة، بعد نجاح الرجل في غرس بذور التهدئة حاول إسدال الستار عن حقيقة ما يحدث، وتفهم الأسباب وراء هذا التصرف الأرعن الذي شهده من ابنه خلال هذه الدقائق الغابرة، صرخ في وجهه بحزم:

- "(مازن).. اهدى شوية!"

تجول الرجل بنظراته بين الشابين الجالسين أمامه، يرقب نظرات الغضب والحنق المتبادلة بينهما، تساءل بفضول:

- "ممكن تفهموني إيه اللي بيحصل؟"

انتظر لثوان ليتلقى إجابة من أحدهما، فلم تصدر أي كلمة منهما، فتأجج غضبه:

- "انطقووو! مستنيين إيه؟"

شرع (ياسر) في سرد الحكاية التي كان بصدد كشفها قبل الوصول المفاجئ لـ(مازن)، متحدثًا بتردد:

- "انتَ تعرف يا عمي الممثلة اللي اسمها (نجوان)؟"

توقف عن مباشرة كلامه مع نظرات الغيظ المنبعثة من عيني (مازن) والتي وأدت تدفق الكلمات في فمه، أجال الكهل نظراته الحائرة بين الشابين متسائلًا:

- "مالها!؟"

أردف (ياسر) بتردد:

- "(مازن) على علاقة بيها.. وعايز يتجوزها"

اندفع (مازن) صارخًا في وجه (ياسر):

- "انتَ نسيت إن انتَ اللي عرفتني بيها.. ولما نويت أتجوزها خطفتها مني يا ندل!؟"

صفعت الصدمة وجه الوالد الذي تفرّس بخبرته منذ بداية المشاجرة أن وراءها إمرأة، ولكن لم يطرأ بخاطره أن تتطور العلاقة للزواج من

ممثلة تستبيح الصحف حياتها الخاصة قبل العامة بمجرد أن تخطو أعتاب الشهرة. لم يُعقب الوالد بأي كلمات، خلع نظارته مشدوهًا في محاولة منه لإنعاش عقله المغتال بالشلل، أخذ ينصت لباقي القصة المثيرة التي استكملها (مازن) بصوت مرتجف:

ـ "لما لقيتها بتستخف بحبي ليها بعد ما كانت علاقتنا كويسة، عرفت إن فيه شخص تاني في حياتها، وعرفت إنه (ياسر).. اتجننت إزاي أعز أصدقائي يخوني ويطمع في اللي بحبها.. نزلت من عندها لقيت البيه مستني بعربيته تحت البيت.. أول ما شافني جري بالعربية.. طلعت وراه بأقصى سرعتي و.."

توقف فجأة عن سرد روايته مما أثار قلق الرجل المُحنك، كان الوالد على دراية كافية بالتصرفات الرعناء لولده الوحيد، وعناده الزائد رغم رقة قلبه، ولكن المغالاة في الطيبة ما هي إلا بركان كامن من مشاعر عدم التقدير المتراكمة، والتي تتفجر بلا هوادة على هيئة غضب مع أي طرقة بسيطة. ليست المرة الأولى التي يتصرف فيها (مازن) بغير اكتراث لأية عواقب، لطالما حمل أسواط التهور في علاقاته بالآخرين ممن يقدم لهم يد المساعدة وفيض الكرم، ويقابلونه بالجحود والنكران، مثلما كان سخيًا في مشاعره الخيرة كان أيضًا سخيًا بثوراته العنيفة، لكن هذه المرة تجاوزت رعونته حد المعقول.

استطرد (مازن) غائرًا في هوة الحقائق التي لم تنته بعد ليقتلع بها صبر والده:

ـ "فيه مصيبة أكبر من كدا.. أنااا.."

ـ "انتَ إيه؟؟"

ـ "أنا خبطت واحد بعربيتي وأنا بحاول ألحق (ياسر).."

ـ "انتَ مجنون!!؟"

ـ "ما قدرتش أتحكم في نفسي كان كل همي الحق (ياسر) وبس.."

خطفت الصدمة ملامح (ياسر) الذي لم يتقبل عقله هذا الحد من سوء الحظ الذي أبرم صفقة مع صديقه البائس، أما الوالد لم تتمالك أعصابه كل هذا الضغط والإثارة، ثارت ثائرته وانتفض من مقعده صارخًا:

ـ "انتَ حُر تضيع نفسك، لكن توصل إنك تضيعنا كلنا معاك بتصرفاتك الغبية مش مقبول.. كل اللي عملته أنا في سنين ضيعته انتَ في ساعة.. كنت فاكرك راجل أعتمد عليه"

لم ينطق (مازن)، أجهش في بكاء صامت يدوي بجوفه، وينشج في حمرة عينيه رثاء لنفسه وعائلته التي قدمت له من التدليل والدعم ما يحلم به ملايين الأبناء المفتقرين للمال والسلطة والمحرومين من دفء العائلة، كان حلم (مازن) أن يرتقي بعائلته، ويحتضنها تحت جناح مسؤوليته، لطالما كان دؤوبًا في دراسته وعمله، سخيًا في عطائه للآخرين في مقابل ما ينشده من صيت الكرم بأعماله الخيرة، إلا أن سرعة غضبه كانت كفيلة بأن تهدم قلاع علاقاته الخيرة مع الناس، كان يعي تمامًا مغبة فعلته الأخيرة التي لن تُغتفر من المجتمع الذي سينتهك سمعة عائلته بلا شفقة، ولا من يد القانون التي ستذيقه مر العقاب.

عاد الوالد لجسلة التعقل، قائلًا بأسى:

ـ "هنعمل إيه دلوقت!؟.. قولولي فيه حد يعرف المصايب اللي حكيتوها غيركم؟"

أجاب (ياسر) الذى ظل محتفظًا بهدوئه واتزانه:

ـ "ما اعتقدش إن فيه حد غيري يعرف بعلاقة (مازن) و(نجوان)"

استرد (مازن) ثباته الذي اقتلعته نيران الندم منذ دقائق، امتعض من رد (ياسر) متسائلًا:

ـ "وعلاقتك بيها انتَ كمان.. تفتكر محدش يعرف؟"

أجاب (ياسر) بندية نابعة من ثقته بامتلاك تعليل معقول لموقفه:

ـ "انتَ مش فاهم حاجة.. مفيش علاقة بيني وبينها زي ما انتَ فاكر.. كل الحكاية إني لما عرفت إنك ناوي تتجوزها لعبت عليها علشانْ تبعدك عنها ودا اللي حصل.. الخطة كانت ماشية كويس لولا تصرفاتك الغبية.. ولَّا كنت فاكر إني هسيبك تقع الواقعة دي وتتجوزها!؟"

أجحفته إجابة (ياسر) التي أطاحت بجبل الظنون المنتصب في عقله عنه.

انزوى في حديث خاص مع نفسه

"أغَفل عقلي لهذا الحد لأسيء الظن بـ(ياسر)!؟ معقولٍ أن يمتلك (ياسر) كل هذا النبل لإنقاذي!؟ يغامر بسمعته ويُعرض نفسه لاتهاماتي وتشككاتي دون أي تذمر!؟ ولم لا!؟ فلقد سبقته ببر الصداقة، وكنت بمثابة الأخ الذي لم يهبه القدر مؤاخاته من رحم أمه.. لا شك أن نواياه كانت بغرض مساعدتي، وأنا الأحمق الذي

أغشاني الحب عن الحقيقة.. أراد (ياسر) أن يبرهن لي أن تلك المرأة لم تحبني يومًا.. وأنني كنت صيدًا ثمينًا لإغواءاتها بخداعي.. كان محقًا في توجسه منها، ولكني لم أنتبه لأي تحذيرات.. كنتُ عاشقا ضلّ عن هويته، وهكذا.. عندما يعشق الرجل ينكمش في طيات مشاعر الاحتواء التي تغمره بها المرأة لتستأثر قلبه، وتجعل منه طفلًا سجيًا في عالمها، يمشي معصوب العينين صوب قبلتها، يفزع إن تركته، ويتوه إن غفلت عنه، ويجن جنونه إن اخترق قلبها رجلٌ آخر، يا لندمي! لقد أسأت للجميع، وضيعت كل شيء"

انتهى (مازن) من حواره المستتر، ثم استدعى ذاكرته لاستعراض مشهد الاصطدام، لم يمكث ثواني حتى تلفظ باستنتاجاته:

- "الشارع كان فاضي وقت الحادثة.. أنا متأكد.. وقفت ثواني بالعربية بعد ما خبطت الراجل، وما شفتش أي بني آدم.. وبعدين الدنيا كانت ظلمة، وصعب إن حد يلقط رقم العربية إلا لو كان على مسافة قريبة أوي"

تبادل ثلاثتهم النظرات، وطرقت ذهن الوالد فكرة:

- "اسمعوا! إحنا هنتصرف بشكل طبيعي لحد ما نشوف إيه اللي هيحصل.. وإن انكشفت هنجيب اللي يشيل التهمة بدالك، مع إني كنت أتمنى تتحمل نتيجة أفعالك لولا إني مضطر أعمل كدا حفاظًا على اسمي وسمعتي"

كان هَم الرجل أن يدافع عن عائلته، ويحافظ على سيرته التي لم تُخدش يومًا، أو تطالها يد خبيثة طوال الثلاثين عامًا المنقضية كما كان معروفًا بنزاهته كمحام مرموق في البلد.

"مظلتي الحرة تفرد أجنحتها كل شتاء لتجمع من قطرات المطر حبات لعقدي.. تلتقط خيوط الشمس لتزهر دربي بانعكاسات الأمل.. هي مئزري وغطائي، وتاج يكللني على طول السفر"

اشتباه

-6-

في صباح مشمس دافئ، تغريدات ناعمة للعصافير تخبو تارة، وتسطع تارة أخرى، الهدوء يكسو الأجواء على غير العادة في هذه الساعة الباكرة من الصباح، كان يوم عطلة، والشارع خالٍ من المارة إلا ممن عهدت إليه طبيعة عمله للسعي في أيام العطلات، في الوقت الذي ينتهز فيه الآخرون باكورة الساعات الصباحية للاستمتاع بنفحات إضافية للنعاس، والتمدد بأرواح مسلوبة من مشقة التعب.

أحضرت (نغم) صينية الشاي، ووضعتها على الطاولة بعد أن انتهت من إعداد الفطور، رمقت الفتاة الواقفة أمام واجهة الشرفة بشعرها المنسدل الساطع تحت الأشعة الذهبية المتخللة لتعبئ بعض أنحاء الغرفة، ضمت الفتاة ذراعها الأيمن إلى صدرها بعد تجبيرة الطبيب الملتفة حول عنقها. لم تنتبه (سلمى) لوجود (نغم)، كانت مسحورة بتأملاتها العالقة خارج أركان الشرفة دون التفات لمن خلفها، تركتها (نغم) لشرودها، وانتهزت الدقائق لدعوة زوجها لتناول الطعام. كان (إسماعيل) جالسًا على طرف السرير بغرفة النوم، يشرع في ارتداء حذائه عندما دخلت (نغم)، بعث إليها بنظرة جافة خاطفة، وباشر في ارتداء الزوج الآخر للحذاء، اقتربت (نغم) وجلست بجواره ملتصقة به، أرخت كفها الأيسر على فخذه الأيمن، وحركته في حنان، حدثته بنبرة رقيقة يعتاد عليها:

- "أنا عارفة يا حبيبي إنك متضايق.. وعارفة إني غلطت لما أخدت القرار من غير ما أرجع لك.. بس أنا عملت كدا لأني عارفة إن قلبك طيب، ومش هترفض إقامة (سلمى) معانا كام يوم"

أصدر (إسماعيل) تنهيدة عميقة، بادل نظرات زوجته باستعطاف، حمل كفها الراقد على فخذه بين يده، ورفعها إلى شفتيه ليقبلها، وظل ممسكًا بها وهو يتحدث:

ـ "صحيح أنا اتفاجئت من اللي عملتيه، وأول مرة تاخدي قرار من غير ما ترجعيلي.. انت عارفة إن وجود شخص غريب معانا ما بيريحنيش.. بس لما فكرت في الموضوع لقيت إن عندك حق.. مكنش ممكن لـ(سلمى) تعيش لوحدها بذراعها المكسور"

حلَّقَت ابتسامة عفوية بشفتيهما، أحنت (نغم) رأسها بدلال على كتفه، وهي تضم ذراعه إلى صدرها، ثم وقفت تستنهضه:

ـ "الشاي زمانه برد، يلا بينا.. البنت ماتت من الجوع برة"

وقف (إسماعيل)، وتبعها للخارج، كانت (سلمى) لا تزال على وضعها كما تركتها (نغم)، انتبهت لخطواتهما، فالتفتت ناحيتهما بابتسامة خجلة، بادرها (إسماعيل) بالسؤال، وهو يجذب لها المقعد لتجلس:

ـ "أخبارك إيه دلوقت؟"

ـ "الحمد لله أحسن"

جلست (نغم) بالكرسي المقابل لـ(سلمى)، بينما توسطهما (إسماعيل) على رأس الطاولة، استنشقت (نغم) نفسًا عميقًا وهي تجول ببصرها في الغرفة المغمورة بأشعة الشمس كأنها ترتشف عطرًا خزاميًا دافئًا تسلل في أوصالها بنشوة، أعربت عن استمتاعها بالطقس:

ـ "الله! الجو النهاردة تحفة، ويشجع على خروجة حلوة.. إيه رأيكم؟"

أجابها (إسماعيل) وهو يوزع بالسكين قطعة من الجبن الأبيض على رقاقة الخبز الراقدة بين كفه الأيسر:

- "إحنا فعلًا عندنا خروجة، بس مش حلوة.. أنا هرجع من شغلي الساعة 2، تكون (سلمى) جهزت علشان معادنا مع (يحيى).. الراجل مأكد علينا"

- "هكون جاهزة"

أجابت (سلمى) معربة عن استعدادها. بينما عبست ملامح (نغم) التي خاب أملها في استغلال هذا الطقس المفعم بالطاقة والانطلاق، والمناسب في رأيها لرحلة نيلية، أو التنزه بإحدى الحدائق واستقطاب أشعة الشمس المنسدلة بالجلوس وسط الطبيعة الخضراء مع بريق الألوان المزهرة المتراصة بنادي الجزيرة، حيث يذهبون كلما سنحت ظروف العمل لها أو لـ(إسماعيل). عبرت عن امتعاضها:

- "أنا كنت نسيت التحقيق.. خسارة اليوم الجميل دا يضيع.. على كل حال أدينا مع بعض الأيام الجاية، ولازم نستغلها في فسحة حلوة"

كاد الحرج يقتلع جوارح (سلمى) منذ وطأت قدماها بيت (نغم) و(إسماعيل) بالأمس، هذه المرة الأولى التي تبيت فيها خارج منزلها، ورغم الصداقة ومشاعر الألفة التي تجمعها بهما إلا أنها لم تتمكن من تدارك عواصف الارتباك التي تتقاذفها، أحكم الضيق قبضته عليها، لا تستطيع أن تفكر بأي شيء سوى أنها مقيدة، لم تدرِ ما سبب انزعاجها على الرغم من أنها كانت في خضم وحدتها تأمل في أي صحبة تؤنسها، والمثير لدهشتها أنها لم تتقبل هذه الرفقة عندما استجاب القدر لأمنيتها، وأرسى دعائمها بتدبير محكم، كانت تعلم أن من دَيدن الإنسان أن يتمنى، وعندما تتحقق أمنيته تتملص منه

السعادة في اعتراف منها بأنه لا يستحقها، وكأن من الواقع أن لا تبلغ سعادته التمني، ولأن حيرتها أطفأت أي إحساس لها بالوئام مع الرفقة المحببة إليها، كان عليها أن تنتزع هذا الشعور المثقل لكاهلها، وإن كان في المقابل أن تعاني بوحدتها مع هذا الكسر في ذراعها، والذي سيعوقها عن أداء مهامها اليومية، أعربت عن نيتها:

ـ "أنا مش عارفة أقول إيه على اللي عملتوه معايا.. انتو أقرب من أهلي. بس مش عايزة أسبب لكم إزعاج، وأكون حمل تقيل عليكم.. أنا نويت أرجع بيتي النهاردة بعد ما يخلص التحقيق"

لا يعلم (إسماعيل) من أين هبت إلى بدنه تلك النسمات الباردة من الارتياح الذي أثلج صدره مع سماع نية (سلمى) بالرحيل عن منزله، ارتبكت مشاعره، هو لا يكره (سلمى)، ولا تزعجه بأي حال من الأحوال، فالفتاة في رأيه ثرية بحسن الخلق وخفة الروح كما عهدها دائمًا، كانت في نظره النموذج المثالي للصديقة المخلصة، وصدَقت حينما وصفتهم بالأهل، هم أيضًا يضعونها بنفس المكانة، ولكن ما أثار تساؤلاته ما تأباه نفسه من رؤيتها أمامه طوال الوقت، لعله اعتاد على ملاقاتها من وقت لآخر في مناسبات تجمعها بـ(نغم) خارج نطاق العمل، ولكنه لم يعتد بعد على إقامتها معهم لبعض الأيام، لهذا استنكرت نفسه الفكرة"

لم تتقبل (نغم) النوايا التي أفصحت عنها (سلمى)، تبادلت نظرات التساؤل مع زوجها المرتقب لما سيؤول إليه المشهد بنتائج، أعربت (نغم) عن انزعاجها:

ـ "ليه عايزة تمشي!؟ انت مش مرتاحة معانا!؟"

ـ "الحكاية مش كدا"

حاول (إسماعيل) أن يبدي عكس ما يجول بعقله من أفكار متبعًا قواعد اللباقة، فأرخى مظلة الترحيب بالفتاة:

- "(سلمى) انت مش غريبة، وإحنا أهلك زي ما قلتي.. ومرحب بيكي في أي وقت ومش ممكن تكوني مصدر إزعاج أبدًا.."

استطرد (إسماعيل) بعد أن تفحص عقارب الوقت بالساعة الملتفة حول معصمه، ووقف متأهبا للمغادرة:

- "أنا اتأخرت أوي على شغلي.. أتمنى ترجعي عن نيتك إلا لو كنت متضايقة مننا.. أنا ماشي"

حلقت أجنحة الارتباك على الجالستين على طاولة الطعام، توقفتا عن الأكل بعد أن أخذت الكلمات تتعارك بجوفيهما في تردد دون انطلاق شظايا الحرف لأعتاب ثغريهما، كانت (نغم) أسرع في ترويض لسانها للتحدث:

- "لو متضايقة من وجودك معانا أنا مش همنعك.. لكن انت كمان مش هتقدري تمنعيني إني أتابعك كل يوم"

انهمرت أمطار بكاء من عيني (سلمى) لا تكاد تلاحقها بيد واحدة من شدتها، تأملتها (نغم) في صمت، كانت ملامحها أبلغ في التعبير عن ما يجول بداخلها، منذ عرفتها وهي تشفق على وحدتها، ونوبات الحزن التي تحيلها إلى امرأة تجاوزت الشيخوخة رغم أنها لم تبلغ الثلاثين، داهمتها تساؤلات متأملة، أيكون القدر غير منصف مع تلك الفتاة المسكينة!؟ ما ذنبها إن تخلى والدها عنها وتركها فريسة الحرمان من مظلة أمانه؟ ولم سلبها القدر مظلة الدفء والحنان بوفاة أمها كذلك!؟ إنها لا تستحق كل هذه القسوة، يا لروحها النقية

الضعيفة! للحظات راودتها تلك الأفكار المستنكرة لقضاء القدر، ولكنها سرعان ما نأت عنها في خشوع، كان إيمانها بحكمة الله أقوى من وخزات الشيطان، ولكن حبها الكبير لـ(سلمى) جرفها لتساؤلات ما كان لها أن تخوض بأغوارها، فلها أن توقن بأن للخالق كامل العلم بخلائقه يقضي فيهم بحكمة إلهية تتخطى استيعاب البشر، ولو فتحوا بلايين الأبواب المغلقة عن بواطن النفس البشرية فلن يهتدوا لأسرار حركة الحياة. هدأ عقلها عن مراوغاته، فتحركت ناحية (سلمى) دون محاولة منها لانتزاعها من تفجرها، بل حثتها على الاستمرار، كانت تؤمن بأن البكاء يد ثالثة تربت على قلب الإنسان لتضم روحه بهالة من الارتياح والطمأنينة، كان كف (نغم) القابض برقة لرأس صديقتها قد أرقدها إلى صدرها في حنان، كأنها أرادت أن تشبعها بشعور الأمومة الذي فقدته، أو تُراها هي من كانت في احتياج لإطلاق مشاعر الأمومة المحتبسة بداخلها بحرمانها من الأطفال، كأن كل منهما بحاجة إلى من يكمله، ازدادت (سلمى) نحيباً لا تدري أي مشاعر تلك التي اخترقتها، الحنين الجارف أم مشاعر أخرى لا تكاد تميزها، توقفت فجأة عن البكاء واستعادت قوتها بحزم، لمحت (نغم) هدوءها بعد عودتها للاستناد بظهرها على المقعد، كان على (نغم) أن تكسر هذا الصمت المُثن:

- "إحنا ليه ما بنقدرش نعيش بدون ما نفكر في اللي بيوجعنا!؟"

حلقت نظرات (سلمى) إليها بتفكر، كأنها تبحث عن إجابة، تحدثت بصوت محتقن:

- "لو انت تقدري أنا هقلدك"

- "هنقدر لو أخدنا القرار"

- "تفتكري؟"

- "أكيد بس إحنا نحاول.. مش معقول هنفضل كدا مخنوقين جوة دايرة الوجع.. إحنا لازم نخرج منها.. ربنا أنعم علينا بنعم كتير تستحق إننا نفكر فيها"

أومأت (سلمى) برأسها مؤيدة، وخطف الشرود بصرها للطاولة لبعض اللحظات، استدارت (نغم) للجلوس مكانها مرة أخرى، تفوهت (سلمى) بما عزمت على فعله:

- "انت عندك حق لازم نكون أقوى.. علشان كدا أنا هرجع شقتي.. محتاجة أعتمد على نفسي في الفترة دي، وأشوف هقدر عليها لوحدي ولا لأ.. وأوعدك إني مش هتردد أطلب منك المساعدة لما أحتاجها"

تفهمت (نغم) نية صديقتها، ما كان منها سوى الانصياع لرغبتها وإن كانت غير راضية عنها، فلها أن تعيش حياتها بالشكل الذي تتكيف معه دون ضغوط.

"من يتشبث بأحبال الظروف يقهره استعظامها"

-7-

أنهى (يحيى) المكالمة واضعا سماعة الهاتف من يده، أخذ يحملق في الرقم المدون على الدفتر المنبسط أمامه، كان قد سجل نفس الرقم الذي وجدوه على قصاصة الورق التى عُثر عليها في شقة (سلمى)، والتي فيما بدا له من حالتها المهترئة أنها تخص السارق، لابد أنه أسقطها في غفلة منه أثناء محاولته للهرب، لم تطل تكهنات (يحيى) كثيراَ مع طرقات الباب الذي فُتح بواسطة أحد الأشخاص، والذي دلف مسرعًا إلى الغرفة، كان هذا مساعده (حسن)، استقبله (يحيى) بشغف:

- "ها.. وصلت لإيه؟"

- "الورقة اللي لاقيناها عليها بصمات السارق.. وبقع الدم اللي لاقيناها على الأرض هي نفسها فصيلة الدم اللي على المنديل اللي استخدمته الضحية في مسح الجرح.. أهل السارق اتعرفوا على جثته، ومنتظرين برة"

- "طيب دخَّلهم واحد واحد"

ابتهج وجه (يحيى)، وتدافع الحماس في أوردته المتدفقة على ملامحه، كان حرصه على عمله من أولويات حياته المطلقة، كان يعشق مظلة الشرطة بكل ما تحويه من سلطة وحماية وخدمة وانتماء، لم يذكر أن انتابته تلك المشاعر التي تتلبس أقرانه من الضيق أو التذمر ولو لمرة واحدة منذ التحف بعباءة الضابط، كانت علاقاته جيدة بالجميع، شخص اجتماعي من الدرجة الأولى يمتلك كافة

المفاتيح التي تُمكنه من التقرب للرؤساء، وكذا صغار المجندين في آن واحد، ماهر جدًا في ممارسة المجاملات، وسلب العقول بكلمات الإطراء التي يُصهر بها أعداؤه قبل أصدقائه، ينسل عقله من جسده مع الورقة الأولى في ملف أي قضية يتناولها، ويعود لرأسه مع آخر ورقة في الملف، لذا كان يشعر أنه قريب جدًا من الحقيقة في تلك القضية البسيطة.

بدأ (يحيى) التحقيق مع والد السارق، لم يحصل منه على معلومات ذات أهمية، والشاهد الثاني كان أخاه، والذي لم يُضف جديدًا أيضًا، أما الشاهد الأخير كانت خطيبة السارق، والتي حاصرها (يحيى) بالشك، بدا عليها احتضان ما يبحث عنه من حقائق، فأخمر وجهه تحت قناع الصرامة عند مواجهتها مما دفعها لسرد التفاصيل، خاصة بعد أن واجهها برقم الهاتف الذي أسقطه خطيبها في موقع الجريمة والذي علم باتصاله أن الرقم يخص محل مجوهرات، ارتعدت الفتاة البسيطة من حدة ثقته، وأخبرته أن خطيبها يعمل بمحل الأدوات الكهربائية المقابل لمحل المجوهرات، وأنها علمت منه أن الضحية زائرة دائمة للمحل، ولابد أنها تمتلك ثروة من الذهب، في الأسبوع الماضي تتبعها بعد مغادرتها المحل حتى عثر على محل سكنها القريب، وظل يراقبها بشكل يومي حتى وصل لرقم شقتها وخطط لفعلته. بدا على الخطيبة أنها تحظى بقدر محترم من التعليم العالي والثقافة، وكما ذكرت له أن الخطيب (السارق) حاصل على بكالوريوس تربية رياضية منذ ثمان سنوات، لم يندهش (يحيى) من كل هذه المعلومات؛ فهو يعلم أن التعليم في مصر آخر أهدافه أن يحظى الشاب بوظيفة محترمة تتكيف مع مؤهلاته، هذا إن ارتقت مؤهلاته خلال سنوات التعليم المضنية، لكن ما أثار دهشته بشكل

جدي هو كيف لهذه الفتاة المثقفة أن تقبل بزوج مجرم، ليس هذا فقط، بل وتعاونه على مخططه فيما بدا من إلمامها بكافة تفاصيل الحادث، لم يتمكن (يحيى) من حجب تساؤلاته:

- "أنا مستغرب.. إزاي عارفة كل دا عن خطيبك وموافقة عليه!؟"

- "زي كل حاجة عارفين إنها غلط وبنعملها"

- "إنتو مخطوبين من إمتى؟"

- "من 4 سنين"

- "يااه! فترة طويلة أوي.. وإيه اللي مأخر جوازكم؟"

ازدردت الفتاة ريقها في قلقٍ يصحبه بعض الأسى، كالتي شعرت بضياع سنواتها المهدرة، لم تمضِ لحظات حتى أفصحت عن مكنون جوفها:

- "(محمود) كان شاب طيب اتخرج من سنين ومالقاش فرصة مناسبة للشغل.. فضل يتنقل من شغلة للتانية، وكلها أشغال ما تنفعش تفتح بيت محترم.. اللي أخر جوازنا يا فندم هو نفس السبب اللي خلاه يسرق.. ضيق دخله"

افتُضحت بصورة جلية ملامح (يحيى) الساخرة التي لم يحاول موارَاتها، في نظره كانت تلك الإجابة المتكررة لكل مجرم يختلق الأعذار لإقدامه على عمل إجرامي (ضيق الحال.. قسوة الظروف.. سوء الحظ)، أعرب بانفعال عن ما يختلج بأفكاره:

- "انت عايزة تقوليلي أن أي بني آدم بيعاني من ظروف صعبة يسرق!؟ انت عارفة فيه كام مليون شخص مش راضيين عن حالتهم

المادية؟ يا سلاااام! المفروض إن كل دول يبقى لهم الحق في السرقة، وما حدش يحاسبهم!؟ هو دا اللي علمهولكم في المدارس!؟"

انهارت الفتاة في موجة من البكاء أعقبت تهكم (يحيى) على الظروف الاجتماعية التي وصفتها، والتي توقن تماما بأنه لم يلمسها أو يتجرع قسوتها يومًا، فهي تعلم جيدًا أن شخصًا مترف الحال مثل (يحيى) لن يشعر بمعاناتها، أو معاناة الشباب ممن لم يجدوا من ينتشلهم من بِركة الحرمان والمشقة، استجمعت جرأتها في محاولة منها للدفاع عن خطيبها الفقيد:

ـ "سيادتك ما عشتش ظروف (محمود) علشان تحكم عليه.. عمره ما رضا يكون عاطل.. اتمرمط في أكتر من عشرين شغلانة، وما عرفش يكَوِن مستقبل.. حاول.. بس مكنش عنده اللي يسنده، أو يقدم له واسطة زي غيره"

ـ "كلام فارغ.. مش كل واحد بيشتغل بمؤهله.. فيه ملايين ظروفهم أسوأ من ظروف خطيبك وعرفوا يكبروا.. واللي ما يعرفش يكبر يعيش على قده.."

أجابها (يحيى) بتعنيف شديد، لم يتعاطف معها بأي حال، ولم يقتنع بمبرراتها في الدفاع، المجرم مجرم في نظره مهما تعددت مبرراته. بادرها بسؤال جديد اقتلع جذور فضوله:

ـ "و(محمود) بأة كان ناوي يبيع الذهب إزاي!؟"

ارتسم الهلع في خطوط وجهها الممتقعة، ترددت في الإجابة وكأنها تحاول اختلاق كذبة، فلحقها (يحيى) باستنباط الحقيقة، مردفًا:

ـ "ما تحاوليش تكذبي.. على كل حال القضية تعتبر خلصانة، وكويس أوي إن خطيبك مات قبل ما يورطك في مصيبة"

تشجعت لسرد التفاصيل، كان (يحيى) يمتلك موهبة نفاذ البصيرة لقراءة ما وراء البصر، أجابته بكلمات مرتابة:

ـ "اتفق معايا إني آخد الذهب، وأطلع على أي محافظة بعيدة أبدلهم بقطع تانية على إني صاحبة الذهب.. وبعد كدا أرجع على القاهرة وأبيع كل قطعة في محل مختلف"

ـ "وانت جريئة أوي كدا ما خفتيش تتمسكي!؟ يخرب بيتك.. وعملتوا الحكاية دي قبل كدا؟؟"

ـ "لا يا فندم والله العظيم أنا كنت خايفة، لكن كنت مضطرة أوافق بعد تهديد محمود بفسخ الخطوبة.. خفت أضحي بأربع سنين عالفاضي.. ويمكن ربنا عمل كدا علشان ينقذني"

ثقب (يحيى) ببصره وجه الفتاة المرتعدة، استشعر صدق روايتها، فأنهى التحقيق، وسمح لها بالمغادرة، بدا عليه الارتياح لكشف تفاصيل الجزء الأول من الحادث، أما الجزء الثاني لازال يرقد فى طي المجهول، من صاحب السيارة التي صدمت السارق، ولاذت بالفرار دون أن يتسنى لأحد التقاط أرقامها في عتمة الليل الدامس؟؟

في غمرة تساؤلاته انتبه لطرقات على الباب، فصرح بتأشيرة الدخول للطارق.

فُتح الباب مع إشراقة لطيفة بدخول (سلمى). قام للترحيب بها ومن ورائها صديقه (إسماعيل)، كانت أحسن حالًا عن الليلة الماضية، هذه المرة ابتسامتها تشق صباحة وجهها العذب، أبدى (يحيى) إعجابه

بطلّتها، واستحسن حالتها النفسية على الرغم من ذراعها المتعلق بحلة التجبيس الملتفة حول عنقها، أجلسهما في حفاوة، بعد اطمئنانه على استعدادها للتحقيق، بدأ الأسئلة:

ـ "احكيلي بأة.. إيه اللي حصل لحد ما وصلنا لعندك؟؟"

كانت (سلمى) مدغدغة بمشاعر الارتباك، فرغم إحاطتها بجو الأمان لرفقة (إسماعيل)، وأسلوب (يحيى) المُطَمّئن، إلا أنها لم تنتزع هذا القلق الساري في أوصالها، كانت المرة الأولى التي تدخل فيها إلى قسم شرطة، وذاكرتها كالجميع تحمل أفكاراً سلبية مكتسبة من حكايات فظة يتداولها الناس عن أقسام الشرطة، استجمعت ثقتها من نظرة آمنة التقطتها من عيني (إسماعيل)، فسردت ما حدث معها بالتفصيل. سألها (يحيى) عن رقم الهاتف وعن محل المجوهرات:

ـ "تعرفي محل مجوهرات اسمه (خَطاب)؟"

أجابت باندهاش، تعتريها حالة من عدم الفهم:

ـ "أيوة.. دا المحل اللي بتعامل معاه، واللي كانت والدتي -الله يرحمها- بتتعامل معاه من سنين"

ـ "آخر مرة رحتي لعنده كانت إمتى؟"

ـ "من أسبوع كنت عنده اشتريت إسورة.. وكانت من ضمن الحاجات اللي اتسرقت"

كان (يحيى) على وشك طرح سؤال جديد لولا دخول الساعي بالمشروبات مع مرافقة المساعد (حسن) بتقديم مغلف وضعه على

المكتب أمام يحيى، فتح يحيى المغلف متصفحا تقرير الطب الشرعي عن نزيف داخلي أدى لموت السارق بعد صدمته بالسيارة.

استأنف (يحيى) التحقيق بأسئلة روتينية، لم يحصل من (سلمى) على أكثر مما يعرفه من معلومات، بل على العكس هو من أفصح لها عن التفاصيل التي جمعها، أخبرها أن السارق كان يمتلك قوة عضلية ومرونة بدنية أهلته لارتقاء سطح العقار، وهبوطه طابقين على المواسير حتى دخل لشقتها من نافذة الحمام قبل عودتها للمنزل في الليل، تملكها الذهول مما نفذ إلى مسامعها من حقائق، فتساءلت:

- "يعني كان موجود في الشقة قبل ما أوصل!؟"

- "بالتأكيد.. واضح إنه كان مراقبك، ولما خرجتي بدأ خطته بس من سوء حظه إنك ما كملتيش مشوارك، ورجعتي بسرعة، فطبعًا اضطر يستناكي لحد ما تنامي علشان يهرب"

داهمها القلق الشديد من رواية (يحيى)، وحمدت الله على ما آلت إليه الأمور، وأن إصابتها لم تكن بالغة.

لم يغفل (يحيى) أن يتقدم باقتراح قد يساعدها في وحدتها، وينمي طاقتها في حماية نفسها، أفصح عن فكرة تلاعبت في عقله منذ ليلة أمس:

- "على فكرة.. عندي صديقة شاطرة أوي في تدريب تمارين الدفاع عن النفس.. إيه رأيك تستفيدي من كام تمرين معاها؟"

- "تمارين دفاع عن النفس!؟"

- "مش هتخسري حاجة لو جربتي"

كانت (سلمى) مشدوهة من العرض الذي لم تتوقعه، للحظات امتص عقلها الفكرة التي بدت سخيفة بالنسبة لها، لم تتخيل نفسها يومًا ترتاد رياضة قاسية وهي بالكاد تمارس تمارين خفيفة، انتوت أن تقابل العرض بالرفض إلا أن (إسماعيل) كان أسرع في إبداء رأيه:

ـ "فكرة ممتازة يا (يحيى)"

ابتسم (يحيى) لاستحسان فكرته، وزع نظراته بين الحاضرين، متحدثًا:

ـ "إذا موافقين ممكن أكلم (ندى) واتفق معاها"

كانت إجابة (إسماعيل) كالصاروخ الموجه لمركز التحكم في لُبها مما أصابها بالشلل، ما كان منها إلا الخنوع لآرائه، إن كان يجدها مناسبة فبالتأكيد تراها كذلك، كل إنسان في هذه الحياة يحتاج إلى مؤشر يضبط سلامة اختياراته، وكان (إسماعيل) هذا المؤشر بالنسبة لها.

انتهى اللقاء بعد أن استردت المسروقات، على أن يلتقوا مجددًا في الأسبوع المقبل بعد دعوة الغداء التي اقترحها (إسماعيل) على (يحيى) و(سلمى)، سَعد (يحيى) بهذه الدعوة، وفي نيته توطيد معرفته بالفتاة التي تسَللت إلى تفكيره منذ قدومها، قَبِلَ الدعوة بترحاب بحجة أنه يفتقد الأصناف الساحرة التي تعدها (نغم).

في أثناء مغادرتهما لقسم الشرطة تلقى (إسماعيل) مكالمة على جواله، تفيد بوقوع جريمة قتل لفنانة تدعى (نجوان)، وعليه الحضور لموقع الحادث. أنهى المكالمة، وقابل صمت (سلمى) بنظرات حانية اعتادتها منه، لطالما شعرت بالارتياح والطمأنينة برفقته لها في كثير من المواقف التي تحتاج دعمه فيها، وهو بدوره لم يخذلها أبدًا،

كان جميع من يعرفونه يغترفون من بئر شهامته التي تجلت معها مؤخرا، أخبرها:

- "في واقعة مهمة حصلت، ولازم أكون في موقع الحادث بعد نص ساعة.. هوصلك قبل ما أطلع على هناك.. ما قلتليش هتروحي على فين؟"

- "هاخد تاكسي على شقتي علشان ما تتعطلش عن شغلك"

ثقبها بنظرة امتعاض وضيق، لم يكرر سؤاله محبذًا اتخاذ القرار دون الرجوع إليها:

- "ما تتعبنيش معاكي.. هوصلك عند (نغم) كدا هكون مطمن.. ولما أرجع تكوني قررتي تبقي أو ترجعي شقتك"

أومأت برأسها مؤيدة خطته، لم تشأ إزعاجه بمزيد من النقاش، حتى لا تضيع عليه مزيدًا من الوقت فيتأخر عن عمله، كان يحلق بداخلها إحساس غامر بالسعادة لقلقه عليها، فهو لا يأمن عليها المغادرة وحدها بعد ما مرت به، لطالما شعر بمسؤوليته تجاهها، ربما لأنه دومًا يخبرها بأنها أيقونة الفرح التي أهداها القدر لزوجته حينما تبدلت أحوالها لأحسن حال منذ غُرست لقاحات الصداقة في بدنيهما، وكأنها كانت تنتظرها لتشعر باكتمال حياة افتقدت فيها معنى لا تحتمل فقدانه.

"لا تكتمل الصورة من النظرة الأولى.. كما لا يشتعل عود الثقاب من أول مرة"

-8-

داخل المنزل الفاخر المكتظ برجال البحث الجنائي والذين انشغلوا بالتنقل من بقعة إلى أخرى مثلما تتناوب قطع الشطرنج على طاولة اللعب، أخذ (إسماعيل) مكانه في تفقد الجثة الممدة على الأرض، رفع الغطاء عن وجهها، كانت امرأة على أعتاب الثلاثين من عمرها، بدت ملامحها جميلة على الرغم من زُرقة بشرتها الميتة ووجهها المفتقر للدموية، مع احتفاظ شعرها بنعومته ورونقه الذهبي اللامع، أخذ يتأمل وجهها للحظات، كأنه أراد أن يسأل تلك الملامح التي بدت مألوفة الصورة لذاكرته عن هوية حاملتها، قاده التفكير للعديد من المحطات في حياته لعله يهتدي للتذكر، ثم استوقفته الفكرة الأكثر منطقية بالنسبة له، صاحبة الجسد الممدد أمامه كانت تمتهن التمثيل، ولابد أنه رآها على الشاشة في واحدة من المرات التي كان يقلب بها محطات التلفاز، أخبروه أنها لم تكن مشهورة بالقدر الكافي ربما لهذا السبب لم يعرفها بادئ الأمر عندما أطلعوه على اسم الضحية وتكليفه بالقضية، انتهى أخيراً من تفقد الجثة، وجال بنظره في محيط رؤيته حيث لمح فتاة جالسة على مقعد ناء في أحد أركان الردهة تُحملق ببصرها تجاهه، كانت فتاة بسيطة جدًا أرجفت الصدمة جسدها النحيل مثل أوزة صغيرة انتُشلت من بركة مملوءة بالماء البارد، مشهد مُروع لفتاة لم تتجاوز السابعة عشر من عمرها، اقترب (إسماعيل) ناحيتها، وهي تترصد خطواته الدانية بحذر شديد، سحب المقعد المجاور لمقعدها، وأركزه بمواجهتها مباشرة، ثم جلس، تطلع إليها لدقائق ببصر ثاقب دون أن يتحدث، كأنه يقرأ ما تسطره

خواطرها المكتومة، ارتبكت الفتاة من نظراته المصوبة ناحيتها مما دفعها للتخلي عن صمتها:

ـ "أنا هقولك يا باشا عاللي حصل"

داهمها (إسماعيل) برزانة مفتعلة واضعًا ساق على ساق:

ـ "أومال أنا قاعد مستني إيه!؟... انطقي"

ـ "حاضر"

ـ "اسمك إيه؟"

ـ "(فاطمة مرزوق)"

تعمد (إسماعيل) أن يزيد من اضطرابها بكلماته الجافة غير مبد أي لمحة من لمحات التعاطف معها، ففي قناعته أنه على رجل الشرطة ألا يبدي انفعالًا يسبر عن مكنون أفكاره أمام المشتبه بهم، فإن كان مُصدقًا أو مُكذبًا أو مُتعاطفًا، فعلى ملامحه أن تتخلى عن صراحتها في البوح بما يطلعها عليه عقله، ونجح بالفعل في إثارة فزع الفتاة التي أسهب لسانها بالتفاصيل:

ـ "امبارح العصر الست (نجوان) أمرتني أمشي، وما أرجعش غير لما تتصل عليا لأن فيه ناس مهمين هيزوروها"

ـ "وبعدين؟"

ـ "مشيت يا باشا، وما جاليش منها اتصال.. لما جيت النهاردة في معادي لقيتها زي ما سعادتك شايف.. اترعبت، وطلعت أجري على بيت الجيران حكيت لهم عاللي حصل، واتصلوا بالبوليس"

- "انتِ بتشتغلي معاها من إمتى؟"

- "من سنتين سعادتك"

- "ناس مين بأة اللي زاروها إمبارح؟"

- "ما اعرفش مين يا باشا، بس أكيد واحد من الرجلين اللي دايمًا بيتصلوا عليها"

"أسمائهم إيه الرجلين؟ ويطلعوا مين؟"

- "ما اعرفش.. ما كانتش بتقول أسمائهم أبدًا قدامي.. كانت متعودة تنادي أصحابها بـ "يا حبيبي".. و"يا قلبي".. وأسامي زي كدا"

امتعض (إسماعيل) من أقوال الفتاة التي لم تمنحه أي رمق يروي ظمأ تساؤلاته، ولم تأخذه شفقه بارتعادها وبكائها المتقطع، كان عليه أن يكون أكثر حدة وإلحاحًا بأسئلته:

- "انتِ عايزة تفهميني إنك ما تعرفيش أي حاجة عن الست اللي ملازماها معظم الوقت!!؟... اتكلمي يا بت دوغري!"

ارتجفت الفتاة لحدته واقتضابه، كان وجهه شديد العبوس كأن الابتسامة لم تعرف طريقًا لوجهه أبدًا، أجابت في محاولة منها لجلب استعطافه:

- "يا باشا والله العظيم ما أعرفهم، الست كانت حريصة أوي.. ما كانتش بتثق في مخلوق.. بس أنا في ليلة لمحت واحد بيوصلها بعربيته وأنا بقفل الباب وماشية"

- "تعرفي عربيته نوعها إيه؟ أو رقمها كام؟"

ـ "ما افهمش في العربيات، ولا شفت رقم العربية.. الدنيا كانت ليل.. بس كانت عربية فخمة أوي"

اتضح لـ(إسماعيل) أنه لن ينال أي معلومة مهمة من وراء هذه الفتاة التي بدت من بساطتها أنها تحمل أسفارًا عدة من الجهل الثقافي والاجتماعي، اقتحمته فكرة أن الفنانات ممن يخضن علاقات سرية مثل (نجوان) لا يحتاجون لخدمتهم أكثر من شاة لا ترى ولا تسمع، وإن سمعت أو رأت لا تفهم، أو بالأحرى يقتصر قاموسها الثقافي على المطبخ وأدوات التنظيف، وهذا كاف جدًا لمن يحتضنون أسرارًا تنال من سمعتهم.

اكتفى بهذا القدر من الاستجواب مُعلقًا الأمل أن يجد فى نتيجة تشريح الجثة ما ينسل خيوط تلك العقدة التى تبين له أنها ليست أقل صعوبة مما مر به من قبل مع مثل هذه الجرائم التي استساغها مجتمع طغت فيه الأحقاد والكراهية على رحمة القيم والضمائر، لبث دقائق في حوارٍ مع نفسه انقطع مع رنين هاتفه، كانت زوجته تُذكره بموعدها مع الطبيب، والذي أوشكت ساعته. انتهى من مهمته في موقع الجريمة، ثم غادر للحاق بالموعد.

"لا شيء يحتاج لقوتنا أكثر من ضعفنا..

ولا يلملم أوجاعنا المبعثرة سوى أيدينا"

-9-

بدت ملامح الحزن والخيبة صارخة على وجه (نغم) عندما استقبلت (سلمى) عودتها للمنزل بعد انقضاء موعدها مع الطبيب، كاد بركان من الدماء يتفجر من عينيها الحمراوتين، وشهقات متقطعة تهذي بالألم، لم تفهم (سلمى) طبيعة ما يحدث، فقط فتحت ذراعها الأيسر لاحتواء تلك الأوجاع التي تسللت لجسدها مع ارتجافات البكاء التي أطلقتها (نغم) بحضنها حتى هدأت أخيرا، أزاحت (نغم) ذراعها واقتربت من إحدى الأرائك بغرفة الجلوس منهارة بجسدها عليها، وقفت (سلمى) تترقب ما تجود به عيناها من حديث إلا أنها لم تفهم بعد، فهناك دوما العديد من الاحتمالات المفاجئة التي تقرع أجراس الحزن والتي لم تعرف (سلمى) بعد أيًا منها اقتنص ابتسامة صديقتها، خاصة أنها عادت وحدها، فكان التساؤل الأكبر.. كيف تسنى لـ(إسماعيل) أن يتركها وحدها على هذه الحالة!؟ على الأقل كان أولى به مرافقتها للاطمئنان عليها، لم تكن هذه المرة الأولى التي تتابع فيها طبيبا باحثة عن أي أمل يدنيها من حلمها الكبير في إنجاب طفل، حاولت (سلمى) استخراج أي معلومة منها بالرغم من الرواية الواضحة على وجهها المحتقن بالدموع التي تخطت أي كلمات، فكانت محاولاتها بلا جدوى، كانت (نغم) منقادة تحت سطوة سحر ما، لم تهتم بـ(سلمى) كأنها لا تراها أو تشعر بوجودها، أجهشت فى نوبة جديدة من البكاء وهي تردد:

- "مفيش فايدة!"

فزعت (سلمى) من كلماتها المحترقة بنيران اليأس، حاولت تهدئتها لانتزاع هذا الإحساس القاتل لأي أنثى عندما تشعر بعدم قدرتها على أداء الدور الذي وهبتها الفطرة إياه، هذا الشعور بأنها امرأة غير مكتملة، كيف لها أن تتحمل تلك الحياة بلا روح تنمو في أحشائها، وتمنحها الإحساس الأعظم بهذا العالم (الأمومة)!؟ حاولت (سلمى) حثها على الكلام، فسألتها:

ـ "الدكتور قالك إيه؟"

ـ "قال مفيش فايدة.. احتمال ضعيف للإنجاب مع تشوه المبيض"

أجابت (نغم) بحسرة بعد أن تمالكت الكلمات في جوفها.

على مدار ساعة استطاعت (سلمى) أن تخفف من وطأة ألمها حتى استسلمت لخُدرة النوم، ظلت (سلمى) متيقظة حتى الساعات الأولى من الصباح، وصل (إسماعيل) وقد رانه الحزن هو الآخر، جلس على نفس الأريكة حيث جلست (نغم) سابقًا دافنًا وجهه بين كفيه، انغمس فى صمت طويل خرقته (سلمى) بحديث حذر:

ـ "من يوم ما عرفتك وأنا بشوفك إنسان قوي.. كنت بقول الراجل دا إزاي كدا قادر يتخطى كل مشكلة.. عارفة إن الوجع المرة دي أكبر.. لكن متأكدة إنك هتقدر عليه، وأكيد هيظهر الحل في الوقت المناسب"

نظر لها بابتسامة ساخرة وهو يومئ برأسه في إشارة مؤيدة لكلماتها الحكيمة في محاولة إيجابية منها لدعمه بالرغم من مناقضتها لعمق ما يشعر به من خيبة أمل، تشجعت الفتاة في نفث ما يتضارب في

جوفها من مشاعر مختلطة تنم عن بغضها لتصرفه السلبي مع (نغم) بالرغم من إشفاقها على حالته الرثة:

- "وجودك معاها في وقت زي دا كان هيفرق كتير.. انتَ ما شفتش حالتها كانت عاملة ازاي"

كان (إسماعيل) دومًا متفهمًا لطبيعة تعاطفها مع (نغم)، ولكن هذه المرة شعر بسخافة هذا التعاطف، كيف لها أن تطلب منه إبداء دعم لا يستطيع تقديمه حتى لنفسه، هو أيضًا إنسان ليس آلة معدنية تتبع (الكتالوج) المبرمجة عليه لأداء المهام المطلوبة منها بنقرة زر، أعرب عن غيظه في غضب لم تعهده:

- "أنا ما هربتش زي ما انت فاكرة.. أنا كمان موجوع، وكنت محتاج أقعد مع نفسي شوية.. إزاي مطلوب مني أساعدها، وأنا مش عارف حتى أطبطب على نفسي!؟ على الأقل هي لقتك، لكن أنا ما كنتش محتاج أكتر من إيدي تتطبطب عليا.. حتى دي كمان مستكترينها!؟"

اغرورقت عيناها بدموع حبيسة، طعنها باعترافه أكثر من انفعاله الذي تصطدم به للمرة الأولى منذ عرفته، فبالرغم من انتقادها موقفه عندما ترك (نغم) وحيدة هذه الليلة، إلا أنها كانت تشعر تجاهه بعطف غامر، كان محقا بكلامه، تمنت لو كانت تستطيع أن تقتطع جزءا من أوجاعه، أو تربت على قلبه الجريح لاستعادة ابتسامته التي تعشقها، لطالما رأت في ابتساماته القليلة نهرا يروي قلبها الظمآن، تنبهت فجأة كمن استيقظ من سنة خاطفة، أي أفكار تلك التي تراودها!؟ كان قرارها بالانسحاب أسرع من أن تتردد في مثل تلك اللحظة من الضعف الذي كاد ينتزع قدرتها على مقاومة مشاعرها تجاهه، مشاعر لم تتمكن من تمييزها، فتساءلت هل

الصداقة وحدها قادرة على خلق تلك الأحاسيس التي تعتريها، أم أنها انجرفت إلى أبعد من الحد المقبول!؟ لاذت بالفرار تاركة إياه برفقة الحيرة، وهي تربت على كتفه برقة بعد أن بسطت يدها بتردد، هذا أقصى ما كان عليها فعله مع مواساة سريعة:

ـ "أنا متأكدة إنك هتتخطى وجعك.. ما تيأسش من قدرة ربنا"

لم تكن مجرد كلمات تضمد بها جرح غائر، فهي موقنة من قدرته على اجتياز أصعب المشاكل، هكذا عهدته صلباً يختلسه الضعف بين الحين والحين، ولا يخنع أبدًا لصفعاته القاهرة، لم يكن (إسماعيل) هذا الرجل الذي يختفي مع حلول ظُلمات الكارثة، ثم يظهر مع إشراقة شمس الفرجِ مثلما يفعل الكثير من الرجال ممن يخشون أعباء المسؤولية، كثيرا ما كانت تضع المقارنات بينه وبين والدها دائم الهروب، فكانت كفة (إسماعيل) الراجحة إذا ما قارنت بينه وبين من عرفتهم من الرجال، كانت تشعر بغبطة شديدة تجاه (نغم)، وكثيرا ما تمنت لو أن القدر يجمعها بزوجٍ مثل (إسماعيل)، لكنها سرعان ما كانت تشعر بالخجل من مجرد تسلل ومضة إعجاب به بينها وبين خواطرها، ولكن كان عليها الاعتراف بأن هناك مشاعر تتخللنا رغماً عنّا، ورغم محاولاتنا المستمرة لوأدها إلا أنها تتغذى من ثمار المقاومة، وكأننا نبحر عكس الاتجاه.. وكأننا نعاند أقدارنا.

اشتباه

"من السهل أن تجحد لأيادي العطاء الممتدة إليك..

ولكن في الامتنان عصا سحرية تقيم جسوراً أكبر للعطاء مع القلوب الصادقة"

-10-

حفل ضخم أقيم بأكبر فنادق العاصمة المطلة على النيل، ونخبة تضم مئات المدعوين من نجوم المجتمع ورجال الأعمال من المهتمين بتجارة الإلكترونيات، كان الاحتفال مبهراً بكل تفاصيله، من ديكور ساحر ببساطته وألوانه الهادئة، وموسيقى شاعرية أخاذة تنسجم مع رقصات إضائية ثلاثية الأبعاد تعمل باحترافية، تجسدت في كرات ملونة تتساقط من السقف إلى أرضية القاعة بشكل متوالٍ، طيور تحلق على جدران القاعة بانسيابية، أمواج متدفقة في جزرها ومدها بتقنية خلابة، يتبعها حركات إضائية لثلاثة حروف إنجليزية (EME) تتحرك صعوداً وهبوطًا كأجنحة طائر على صفحة الجدران، توقفت الموسيقى مع تحية الحاضرين للشاب الذي دلف إلى وسط القاعة بفخامة وثقة متأنقًا ببزته السوداء، شرع (مازن) بالاحتفاء بالحضور الكريم لمشاركته الاحتفال بالعيد الخامس لتأسيس شركته (EME)، وكذلك تصدرها أعلى أرباح على مستوى شركات الإلكترونيات بالبلد، احتوى برنامج الحفل على مادة ثرية من الإبهار في الجديد من عالم الإلكترونيات، أربع شاشات ضخمة أحاطت الصالة تم تفعيلها بضغطة زر من رئيس مجلس إدارة الشركة الذي رحب بشريكه (ياسر حسين) ليعرض برنامجه الجديد على الحضور، دلف (ياسر) إلى وسط القاعة الخالية من أي مقاعد، وبعد أن رحب بالحضور شرع في عرض أحدث الإصدارات التي تنتوي الشركة تغطية السوق بها في الفترة القادمة. كان (ياسر) مفعماً بالابتسامة واللباقة التي تسلب العقول للانتباه، كان عرضه الأول لفأرة إلكترونية شديدة الجاذبية بألوانها الشفافة، وفي قعرها شاشة دقيقة تعرض الوقت ودرجة

الحرارة ودرجة أداء الحاسب الآلي إلى جانب أنها لا تحتاج لسطح بمواصفات معينة لتعمل، فيمكن لمستخدمها أن يحركها بالهواء لتؤدي وظيفتها دون أن تسبب إرهاقًا في استخدامها. العرض الثاني كان عبارة عن مشغل اسطوانات دائري الشكل يحمل أكثر من حاضن اسطوانة، لتعمل الاسطوانات بصورة تبادلية من قبل المستخدم بتحريك زاوية دائرة المشغل لتنتقل بين الاسطوانات، كانت الأبصار مرتكزة على الشاشات مع ابتسامات استحسان متبادلة مع العرض الثالث للهاتف المنحني، والذي يمكن طيه بأكثر من شكل عند الخط الفاصل بين لوحة المفاتيح والشاشة حسب حاجة المستخدم. أما العرض الأخير فكان الأكثر إبهارًا لاستحواذ عقول الحاضرين كان العرض يتناول لوحة زجاجية رقيقة جدًا تحمل بيئة مندمجة مع نوع خاص من الهواتف يقترن بها، يمكن تثبيت هذا الزجاج على أي بيئة صلبة بالمكان كطاولة مثلًا، وعند وضع الهاتف على هذا السطح الزجاجي يعمل بتقنية رائعة كشاشة تعرض محتوى الهاتف عليها بتقنية اللمس، انبهر الجميع بكفاءة (مازن)، وخططه المثمرة على الرغم من حداثة سنه للوصول باسم شركته إلى منافسة قمم الشركات خلال سنوات قليلة. أما العاملون بالشركة فكانوا على دراية تامة بأن قدرة (مازن) الحقيقية لا تتجاوز إدارة أصغر أقسام الشركة، وأن صاحب الفضل الأول لما تحقق حتى الآن هي الأفكار الجريئة لـ(ياسر) المدير التنفيذي والصديق المقرب من المالك، حقيقة لم ينكرها (مازن) نفسه، والذي دأب الثناء على صديقه، لم يكن (مازن) ليترك مناسبة دون أن يشيد فيها بعبقرية (ياسر) وإخلاصه في العمل، ورغم الخلاف العاطفي الذي نشب بينهما قبل يومين إلا أن (مازن) لم يهمل عاداته الدائمة بالإطراء عليه، وتجدد ثقته اللامحدودة به، كانا أمام الجميع بمثابة أخوين على الرغم من التباين الطبقي

الصارخ الذي حطمه (مازن) ابن الأثرياء بعفويته وكرمه، لم يضع يومًا حدًا لعلاقاته بالآخرين مهما اتسعت الفجوة الاجتماعية بينه وبينهم، لطالما كانت تلك الصفات بمثابة العصا السحرية التي ألانت العوائق بطريق (ياسر)، ليقتلع جذوره المهمشة، ويصنع لنفسه سترة تكيفه مع التحليق ليتآلف مع أجنحة الصقور، توالت عليه الفرصة تلو الأخرى لتحقيق طموحاته اللانهائية، بداية من ذوبانه في حياة (مازن) الذي كان يملك كل شيء في الوقت الذي لم يكن يملك فيه إلا دهاء خلّاقًا، وقدرة ساحرة على إفتان الآخرين، ولا سيما هؤلاء البسطاء في مشاعرهم ممن ينتمي لهم هذا الشاب الثري، احتلت بذور الثقة التي غرسها (مازن) في نفسه تجاه (ياسر) مساحة شاسعة أطلقته إلى طابق المجاورة في العمل عندما منحه الشراكة بإدارة شركته، وازدادت عمقًا بالزواج من شقيقته، لينضم لأفراد العائلة التي لا تخلو صحيفة من تداول أخبارها.

انتظر (مازن) انتهاء الحفل لينفرد بصديقه، اعتذر له عن ما بدر منه من اتهامات أمطره بها عقب المطاردة وحادثة التصادم، برر خطأه بتلك الوساوس التي يقذف بها الشيطان بنفس الإنسان من سوء الظن والوهم الدائم بأن هناك من يتآمر على سلب سعادته بالإضافة إلى الغمامة التي يسدلها الحب على البصر وبصيرة القلب، فلا يكاد يرى إلا ما هيأته له نفسه الموهومة ليبتلع في خندق الضحية، ما كان من (ياسر) إلا أن يقبل اعتذاره، وخاصة أنه لا يكترث كثيرا بتصرفاته الهوجاء التى اعتادها منه بالرغم من رقة قلبه، والتي عادة ما تدفعه للندم والاعتذار بعدما يعود لصوابه، ويتخلى عن نوبات الغضب الأعمى. ربت (ياسر) على كتفه بعطف حاثًا إياه على المغادرة:

- "الحفلة خلصت.. هنمشي، ولا ناوي تبات هنا!؟"

ـ "حفلة ممتازة بفضلك يا مدير"

ـ "البركة فيك انتَ صاحب المال والصيت"

كانا قد غادرا المكان، واتجه كل منهما لسيارته الفارهة في اللحظة التي داهمتهما سيارات شرطة ترجل رجالها مسرعين للإحاطة بسيارة (مازن)، كانت قوة أمنية يقودها (إسماعيل) الذي تحرك بلا تردد ناحية (مازن)، فتح باب سيارته، وطلب منه الخروج:

ـ "(مازن علوان)؟"

ـ "أيوة.. فيه إيه!؟"

ـ "اتفضل معانا بهدوء"

ـ "اتفضل معاكم فين أنا مش فاهم حاجة"

ـ "اتفضل معانا، وهتفهم كل حاجة"

ـ "انتَ بتهزر بأة.. مش جاي معاكم"

اضطر (إسماعيل) لإصدار الأوامر لرجاله لجذب (مازن) الذي اغتالته الدهشة مع نظرات متسائلة يجرها (ياسر) مع قدميه المتحركتين صوبه، لم يكن هناك تفسير وراء هذا المشهد سوى حادثة التصادم، ولابد أن الشرطة علمت بمسؤولية (مازن) عن الحادثة، حاول (ياسر) التدخل لفهم الأمر، ومع إصرار (مازن) أسبر (إسماعيل) عن السبب:

ـ "(مازن) متهم بالقتل"

ـ "قتل مين؟؟ ممكن نعرف؟"

تساءل (ياسر) بادعاء الجهل.

- "هتفهموا كل حاجة لما توصلوا معايا لحد القسم.. ما تضطروناش لاستخدم أساليب انتو في غنى عنها"

تبادلت نظرات الخنوع بين (ياسر) و(مازن) استجابة لطلب (إسماعيل)، عاد (ياسر) لسيارته متتبعًا سيارات الشرطة التي اصطحبت صديقه للقسم.

"العاجز هو إنسان ممزق بين ضعف الإرادة والرغبة في الحياة..
إنسان لم ينهزم في معركته مع الحياة، لأنه في الأصل لم يخض المعركة،
ولم يجرب معنى المقاومة"

-11-

فتحت الباب، وتجلت ابتسامة عطوفة على ثغرها بعد أن رأت الطارق، كانت فتاة صغيرة الحجم حديثة السن، بدت ملامحها رقيقة بشوشة، تتألق وهجًا ببشرتها الناصعة البياض وشعرها الأشقر المنهدل بنعومة حتى أسفل ظهرها، كانت تحيتها أيضًا رقيقة:

ـ "مساء الخير.. (نغم) موجودة؟"

ـ "مساء الخير.. آه طبعًا اتفضلي"

تحركت الفتاة بحرية للداخل كأنها تعلم الشقة جيدًا، كانت حركتها رشيقة للدرجة التي خلعت أبصار (سلمى) لتتبعها بذهول، انتهت الفتاة عند الأريكة الكبيرة خلف طاولة تتوسط غرفة الجلوس، وبعد أن جلست بارتياح تساءلت:

ـ "أومال فين (نغم)؟"

ـ "جاية حالًا.. لكن انتِ عرفتي ازاي إني مش (نغم) لما فتحت لك الباب!؟"

ـ "من نوع العطر.. (نغم) بتستخدم عطر (إيفوريا)، ومش هو نفس العطر اللي استقبلتني صاحبته على الباب"

ـ "أول مرة نتقابل، لكن واضح إن (نغم) ما كانتش بتبالغ لما كلمتني عنك"

ابتسمت الفتاة برقة، ونهضت لاستقبال (نغم) القادمة على مشارف الغرفة تحمل صينية محملة بأطباق الكعك والحلوى مع ثلاثة كؤوس من عصير التوت، اقتربت (نغم) من الفتاة مع ترحيب مفعم بالحفاوة، احتضنتها باشتياق بالغ كأنهما لم يلتقيا منذ زمن، انجذب انتباه (سلمى) المتطلعة بعيون مشدوهة للأحداث منذ قدوم الفتاة، اندلعت دهشتها العارمة من علمها بأن هذه الفتاة المزدانة بالجمال فاقدة للبصر منذ السنة الأولى لمولدها بسبب سقوطها من أعلى طاولة إلى الأرض على مصدر القدرة البصرية في رأسها مما أصابها بالعمى، وبالرغم من ذلك فـ(سلمى) ترى أمامها فتاة طبيعية تنعم بالحياة ولا تعاني من أي مشكلة، تتحرك ببساطة دون عوائق وترتاد كل بقعة في الشقة بثقة كبيرة، كانت (نغم) محقة بشأنها عندما أخبرتها عن جارتها البصيرة رغم فقدان بصرها، انتبهت (سلمى) لحلقة التعارف التي بدأتها (نغم) بعد أن اتخذت مقعدها بجوار الفتاة:

- "(سلمى).. أقدملك (كاثرين) جارتي الشيطانة اللي كلمتك عنها"

- "(كاثرين).. دي بأة (سلمى) صديقة روحي"

ابتسم الجميع مع لهفة (سلمى) لجمع حفنة من الإجابات على شلال التساؤلات التي اخترقت أفكارها عن (كاثرين)، انسل إلى إحساسها أن هذه الجلسة ستنطلق بها إلى تغيير ما في مجريات حياتها، تصورت أن هذه الفتاة التي لم تتجاوز السابعة عشر تعتمر بطانة معقولة من الخبرات التي تُخرس أي عائقة مرت بدرب عمرها، انتبهت مرة أخرى لحديث (نغم) الموجه إليها:

ـ "البنوتة اللي قدامك دي عاملة كوارث.. حضرتها مدربة تنمية بشرية، وبتكتب مقالات صاروخية في مجلة شبابية.. آخر مقالة كتبتها كانت عن أهمية الحضن في العلاقات الإنسانية، لا وكمان اقترحت فتح مراكز للأحضان"

شهقت (سلمى) بضحكة عفوية معربة عن رأيها:

ـ "والله فكرة جهنمية.. بس تفتكري هتكون مقبولة في مجتمع شرقي؟"

ـ "أنا عارفة إن الفكرة صعب تقبلها للوهلة الأولى لكن لو كل حد فينا فكر فيها بينه وبين نفسه هيعرف قد إيه إن كلنا محتاجينها.. إحنا بقينا عايشين في مجتمع ماديات ما حدش بقى عنده وقت يعبر عن مشاعره.. وإن عبر عنها بيكون من خلال شاشات الكمبيوتر والموبايل.. والحضن مش بس تواصل جسدي، لكنه مصدر مهم للسلامة النفسية.. يعني هيحصل إيه لو كل أصدقاء أو أهل اتقابلوا بمودة الحضن، وتواصلوا بمشاعر الاحتواء من خلاله.. أكيد المجتمع هيكون أفضل وبيئة مناسبة للتعبير عنِ المشاعر بدون ضغائن.. معظمنا دلوقت بقا يمتلك كل حاجة تقريبًا من وسائل الرفاهية لكن ناقصنا الاحتواء.. احتواء صادق من اللي بينقل عدوى السعادة والثقة، وبينقل إحساس الأمان والعطاء"

كانت إجابة نموذجية أعجزت (سلمى) و(نغم) عن التعليق على الرغم من تحفظهما على فكرة مراكز بيع المشاعر التي اقترحتها (كاثرين)، والتي بدت لهما كمزحة لا يمكن تطبيقها بجدية لأنها في قناعتهما لن تثمر في خلق مشاعر احتواء حقيقية، ولكن فكرة الاحتواء ذاتها اجتذبت تأيدهما للفتاة فقد كانتا على قناعة تامة بأن

هناك لحظات لا يحتاج فيها الإنسان أكثر من احتواء، والاحتواء في مضمونه الأشمل يعني الرحمة والتسامح والعفو عند المقدرة والدعم بكل ما يحمله من مفاهيم تعزز مجتمعٍ متصالح مع نفسه وإنسانيته، لذا اقتنصت الفكرة خواطرهما، متساءلتين كيف لم تنمو بأفكارهما من قبل!؟ وكيف لم تطرق أذهان الناس المقيدين بسلاسل المسؤوليات والضغوط النفسية التي لا تَلقى أي مقاومة من جانبهم، وينساق خلفها الجميع باستسلام!؟ متجاهلين أي محاولة منهم لإنعاش حياتهم الجدباء، ولأجل أن تزهر أرواحهم ببريقها اللامع.

قدمت (نغم) أطباق الكعك والحلوى لـ(كاثرين) و(سلمى) التي غيّرت مجرى الحديث بفض النزاع المضرم في خاطرها عن الفتاة، فسألتها:

ـ "احكيلي يا (كاثرين) عن تجربتك.. إزاي بقيتي مدربة تنمية بشرية في السن دا؟ انتِ فكرتيني بـ(هيلين كيلر)"

ـ "(كيلر) و(المعري) و(هوكينغ) و(برايل) وغيرهم.. حظي كان أحسن كتير من (هيلين كيلر) هي فقدت 3 حواس السمع والبصر والنطق، لكن أنا فقدت حاسة واحدة، وهستعين بمقولة (نيتشة) في وصف حياتي: "لم أشعر مطلقًا بأنني أكثر سعادة إلا في فترات حياتي الأشد معاناة.. فترات الألم العظيم"... أحيانًا تكون المعاناة طاقة محركة للإبداع، وخاصة مع وجود داعم قوي زي والدتي اللي أصبحت مسخرة كل وقتها علشاني.. كانت بتوفر لي كل الألعاب والدروس اللي تطور من حالتي.. هي كمان كانت بتاخد دروس علشان تساعدني إزاي أتطور، وإزاي أوزن تحركاتي، وأقرأ الناس بدون ما أشوفهم.. وبالقراءة اطلعت على صورة الحياة بخيالي.. دا بالإضافة إن والدتي

انجليزية، وبتعرف لغات تانية زي الألمانية والإسبانية، وطبعًا طلاقتها في النطق اتنقلت ليا.. ودي كانت مقومات مناسبة جدًا أهلتني إني أمارس المجال بسهولة"

- "وبتقدري إزاي تتواصلي مع الناس في محاضراتك؟؟ مجال التنمية البشرية محتاج تواصل بكل الحواس وخاصة البصر"

- "تعرفي إن دي نقطة لصالحي مش ضدي؟"

- "إزاي!؟؟"

- "لأن فقداني للبصر دعم حاسة الإنصات عندي، وبما إني مش شايفة ملامح الأشخاص وتعبيرات وشوشهم، فبتحرك بحرية، وبتكلم بثقة كبيرة، وبتخيل الملامح اللي أنا عايزة أشوفها منهم، واللي دايمًا بترتسم في عقلي بصورة إيجابية.. وفي نهاية كل تدريب بقدر أوصف شكل كل شخص بدقة بناء على التواصل السمعي اللي حصل ما بينا"

- "على بالي سؤال ومحرجة"

- "اتفضلي طبعًا"

- "عمرك ما سألتي نفسك ليه ربنا عمل فيا كدا، واشمعنى أنا اللي أفقد بصري؟"

- "صعب على الإنسان إنه يتقبل حقيقة بيواجهها لأول مرة.. لكن بمرور الوقت بتختلف نظرته للأمور، وبيختار إنه يستسلم لانهزامه ويلوم القدر، أو إنه يعلن انتصاره على قدره.. وأنا بحمد ربنا على اختياراته ليا، ومش حاسة بأي إعاقة في حياتي وأحلامي"

كانت الفتاة تمتلك موهبة مفرطة في الإقناع يدعمها ثقة حاشدة بالنفس استطاعت بها أن تُلهم (سلمى) بأن العجز الحقيقي يحدث عندما يكتسي الحلم بظلمة العين الضريرة وليس العكس، وبأن المستحيل هو أن ترجو شيئًا لا يقدر عليه الله، وهذا ما يعزز إيمانها بأن لا شيء مستحيل تحت قدرة وإرادة الله عز وجل. شعرت (سلمى) باختراق صداقة جديدة لخندق حياتها، كما انسل إلى (نغم) نفس الشعور عندما لمحت عقد الإعجاب يصقل من نظرات (سلمى) للفتاة، مرة أخرى بدلت (نغم) دفة الحديث إلى موضوع آخر:

- "قوليلي يا (كاثرين) إيه مشاريعك الجديدة في المجلة؟"

- "كتبت مقالة جديدة، وعايزة آخد رأيكم فيها"

- "عن إيه المرة دي؟"

- "عن ثلاثية العاطفة"

تطلعت (سلمى) و(نغم) لبعضهما البعض بتساؤل ينم عن مشاركتهما في عدم استيعاب فحوى المقال، فتساءلت (نغم):

- "تقصدي إيه بثلاثية العاطفة!؟"

- "هي ببساطة علاقة عاطفية تتضمن ثلاثة أشخاص، أو بيقولوا عليها العلاقة المثلثة، طرفين بيحبوا بعض وبيدخل طرف ثالث للعلاقة"

- "تقصدي الزوجين والطرف الثالث هو العشيق أو العشيقة؟"

- "لأ مش شرط ممكن يكونوا أصدقاء كمان، والعلاقة ممكن تكون قائمة على الاحترام، وفي الحالة دي بيكون الرجل ممزق بمشاعره بين امرأتين، أو امرأة محتارة في عواطفها بين رجلين"

- "لكن دي علاقة معقدة جدًا.. أظن أنها بتنتهي بالفشل بالنهاية"

- "هي فعلًا علاقة معقدة، وعلشان كدا اخترتها لموضوع المقال، مش بس كدا لأنها كمان شائعة، ثلاثية العاطفة ممكن تكون متوازنة في حالة واحدة، إن الطرف الثالث رغم حبه الواضح واهتمامه بحبيبه بيكتم اعترافه بالحب حفاظًا على مشاعر الطرفين الآخرين، وإن كان هيتحمل الألم لوحده فإحساسه بالصداقة بيجبره على الإيثار حفاظًا على علاقته بأصدقائه، وبيكتم مشاعره للنهاية، أما إن أعلن عنها فبتكون النتيجة تدمير للعلاقتين الحب والصداقة لذلك الطرف الثالث دايما بيفضل الاختيار الأول طالما إن الألم وارد في الحالتين"

لم تمر كلمات (كاثرين) النارية على مسامع (سلمى) بصورة طبيعية فهاجمتها قبضة اختناق مفاجئة، لملمت مشاعرها المخترقة بوابل الكلمات الموجهة التي أطلقتها (كاثرين)، لم يكن همها سوى مواراة ملامح الارتباك التي هيجت أنفاسها وحقنت وجنتيها بالحمرة، لاحظت (نغم) تغير ملامحها مع امتقاع وجهها، وقبل أن تسألها عن ما حل بها، انتفضت (سلمى) من مقعدها لتلافي المأزق الذي زلزل أركانها، وضعت كأس عصير التوت على الطاولة بعد أن رقد بيدها منذ بداية اللقاء، والذي لم ترتشف منه غير قطرات قليلة، تظاهرت بأن العصير كان لاذعًا لاحتقان أنفاسها:

- "العصير مُركز زيادة.. أنا قايمة أغسل وشي"

اختلس القلق نظرات (نغم)، لم ينتفض ببالها سبب آخر لحالة (سلمى) سوى القناعة بهذا التعليل، فأومأت برأسها تفهمًا، ابتعدت (سلمى) حتى قادتها قدماها إلى المطبخ، ثم أصدرت شهقة حبيسة في جوفها انطلقت كاللهب النافذ من قلب محترق، انهارت بكاء،

لكنها لم تلبث أن تنبهت لنداء (نغم)، ارتشفت كوبًا من الماء، وغسلت وجهها سريعًا، أخذت العديد من الأنفاس العميقة المتسارعة حتى تستعيد طبيعتها، التفتت لتجد (نغم) أمامها تطمئن عليها بحنانها المعهود:

- "بقيتي أحسن؟"

- "الحمد لله.. ارجعي انتِ لضيفتك وأنا هحصلك"

- "لا خلاص دي مشيت"

شعرت (سلمى) براحة جراء هذا الخبر السعيد بمغادرة (كاثرين)، كاد أن يقتلها هاجس أن هذه الفتاة شيطانة متجسدة بإنسان، كيف لها أن تقرأ روحها بهذه البساطة!؟ كأنها جاءت لتفضح مشاعر لم تعترف بها حتى أمام نفسها، أتكون الفتاة تتمتع بكل هذه المهارة في فهم الآخرين، أم أن فكرة المقال كانت مصادفة؟؟ ويالها من مصادفة مدمرة! كل ما أملته في تلك اللحظة أن يقطن الشك بعيدًا عن خواطر صديقتها، وإلا فإنها على مشارف الفقدان من جديد.

كانت (نغم) قد عادت للمطبخ بصينية الكعك والعصير، دنت من (سلمى) محاولة التفوه بتردد عمّا يهيج بخاطرها من فكرة لم تتوقعها (سلمى)، ولكنها أشعرتها براحة كبيرة، ووضعتها على حافة السلامة:

- "(سلمى) أنا محتاجاكي في مشوار، ويارب ما تكسفيني"

- "خير يا حبيبتي.. أنا تحت أمرك"

- "واحدة قريبتي نصحتني أروح لشيخ يمكن يساعدني إني أخلف"

- "انت بتتكلمي جد!؟"

- "أنا عارفة إن الفكرة يمكن تكون غبية، لكنها محاولة"

- "مش مصدقة إنها تطلع منك"

نهرتها (سلمى) بنظرات حادة نابذة للفكرة التي بدت لها متخلفة، لم تتخيل أنها تصدر من (نغم) التي تمتلك من قوة الإيمان ما يضرب بأي خرافات ساذجة عرض الحائط، ومع ذلك كانت ملامح اليأس القابضة على وجهها تشي باستعدادها للإقدام على أي مخاطرة تدنيها من الوصول لحلم حياتها، لم تدر كيف تقنعها بجرم ما تفعل، فالإنسان اليائس يغتاله الصمم وتعميه الغمامة، يستسلم لأي سهم سام يضرب عقله دون مقاومة، بل ويمهد له السبل لاختراقه.

- "مبقاش قدامي طريق تاني.. يا (سلمى) أنا تعبانة، بقالي 8 سنين بلف على دكاترة ومفيش حل"

- "بس انت عارفة إن طريق الدجل مش حل.. دا جرم كبير"

- "مش دجال.. دا شيخ هيدعيلي ويقولي على وصفة تساعدني في العبادة مش أكتر.. لعل ربنا يستجاب"

- "حاضر هاجي معاكي مع إني مش مقتنعة بالفكرة.. (إسماعيل) يعرف اللي ناوية تعمليه؟"

- "أيوة.. بعد ما طلبت منه يجي معايا طبعًا رفض بشدة.. ولما قلتله إني هطلب منك قالي اعملي اللي يريحك"

تعاطفت (سلمى) مع دموع (نغم) المنهمرة دائمًا كلما تطرقت لهذا الشأن الذي يعكر سعادتها، ما كان منها إلا أن تساعدها بقدر استطاعتها، لعلها تنعم بالراحة، وتهدأ نفسها.

"البعض يدخل دائرة الحب ويخرج منها بكياسة العقل.. والبعض يذوب في بوتقة الحب، ويتورط فيه حتى لا يسلم من قبضته أو طعناته"

-12-

تأمله في صمت، عينان زائغتان وجسد مرتعش، حالة من الاضطراب والقلق ارتسمت على وجهه وكفيه المعتصران في حركات دائرية، تدغدغت أعصابه مع النظرات الحادة المصوبة إليه من طرف (إسماعيل) دون أن ينبس ببنت شفاه، أبدى غضبه مما يجري له دون أن يفهم ما يحدث، وما وراء استياقه بهذه الطريقة المهينة داخل عربة ترحيلات تنتشل أرباب الإجرام والمنحرفين، لم ينمِ إلى استيعابه بعد أن دهس إنسان بسيارة يضعه ضمن هذه الطائفة من المجرمين. تصارعت شكوكه.. أيكون كُشف أمره ببساطة!؟

ـ "يا فندم فهمني.. أنا هنا ليه!؟"

ثقبه (إسماعيل) بنظرة حانقة، متسائلًا بجدية:

ـ "إيه علاقتك بالممثلة (نجوان)؟"

اخترق السؤال عقل (مازن) المتهتك بعد كل هذه الساعات المعتمة، لم يكن هذا السؤال الذي ينتظره، كيف عرف الضابط بعلاقته مع (نجوان)!؟ أأصبحت مرافقة الفنانين شبهة يعاقب عليها القانون!؟

ـ "مين الممثلة (نجوان)؟ أنا ما عرفهاش"

ـ "ياريت تجاوب بصراحة، وما تضيعش وقتنا.. هسألك تاني إيه علاقتك بـ(نجوان)؟"

ـ "مش فاهم.. مالها؟"

ـ "إنت هتجاوبني سؤال بسؤال؟ اتكلم على طول من غير لف ودوران.. الكذب مش هيفيدك"

ارتبك (مازن)، لم يدرِ أيعلن عن علاقته بها، أم يستمر بالإنكار؟ اهتدى إلى الإنكار حتى يفهم حقيقة ما يجري.

ـ "قلتلك ما أعرفهاش"

ـ "طيب وبصماتك اللي لاقيناها في بيتها؟؟"

ابتلع الأنفاس في جوفه من وطأة ما أثخنته به الصدمة، تلعثمت كلماته بوجل:

ـ "بصمات إيه يا فندم!؟ أنا مش فاهم، والشرطة كانت بتعمل إيه في بيتها؟"

ـ "يعني إنت مش عارف إنها اتقتلت!؟"

انتفض من مقعده صارخًا:

ـ "اتقتلت إزاي!؟ مش معقول"

ـ "دا اللي حصل.. احكيلي بأة إيه اللي وداك عندها؟ واتقتلت ازاي؟"

ـ "أنا صحيح كنت عندها لكن ما أعرفش حاجة عن إنها اتقتلت.. صدقني أنا لسة عارف منك حالًا"

ـ "طيب احكيلي"

بدأ (مازن) في سرد تفاصيل علاقته العاطفية بـ(نجوان) والمشادة التي حصلت بينهما بسبب حبها لـ(ياسر)، وإيثارها له من دونه،

وعن مغادرته بيتها وهي لا تزال على قيد الحياة، لم يصدق (إسماعيل) روايته لسبب وجيه.

- "انت أنكرت معرفتك بيها، وبعدين أنكرت معرفتك بموتها.. يعني لو قلتلك إنها ماتت مسمومة هتقول إيه؟"

- "مسمومة!!؟ أنا ما اعرفش حاجة عن كل دا.. صدقني"

مع طرقات الباب أشرفت لحظات بعث لأنفاس غادرت (مازن) فراراً، مع مشاعر الحزن والخوف التي تقاذفته منذ علم بقتل المرأة التي أحبها، استقبل (إسماعيل) رجلًا ذو هيبة ووقار كان يعرفه تمام المعرفة، لم يكن اللقاء الأول مع (خيرت علوان) المحامي المدوية سيرته في أفق القضايا ذائعة الصيت، أتى الرجل فور علمه بإلقاء القبض على ابنه بغية الدفاع عنه، كانت فطنته تغلب غضبه مع إنصاته لمجريات التحقيق التي رواها (مازن) على أسماعه، فكان له حوار مع (إسماعيل):

- "مفيش دليل على إن (مازن) هو القاتل.. حتى لو بصماته كانت موجودة في موقع الحادث، وخاصة إنها ماتت بالسم"

- "الدليل شهادة الخادمة اللي أكدت أن (مازن) في اليوم دا بعت تورتة عيد الميلاد لـ(نجوان) موقَّعة بـ(العاشق ميم)، وهي اللي لقينا فيها أثر السم"

- "إن كانت التورتة فيها أثر السم فمش ذنب (مازن).. لأنها مرت على أكتر من شخص وأكتر من إيد، لحد ما وصلت من المحل لبيت (نجوان)"

ـ "فعلًا يا أستاذ (خيرت).. وإحنا استجوبنا الشاب اللي قام بتوصيلها للبيت، وشهد بإن (مازن) كان منتظره في عربيته تحت البيت.. وطلب منه يخليها معاه دقيقة علشان يضيف ورقة الإهداء في العلبة المغلفة بعد ما فتحها وقفلها تاني.. تفتكر دا معناه إيه غير إنه كان بيضيف السم؟؟"

ـ "مش معقول يكون دا كلام منطقي.. أكيد الشاب دا كداب، وحد دافع له علشان يورط ابني"

ـ "الشاب اتعرف على صورة ابنك، وأكد روايته"

بعد صمت دام طويلًا تحدث (مازن) أخيراَ باعترافه:

ـ "الشاب قال الحقيقة.. أنا فعلًا أخدت منه علبة التورتة بحجة الإهداء، لكن الحقيقة إني فتحت العلبة، وحطيت فيها خاتم ماسي، وقفلتها ورجعتها تاني للشاب علشان يوصلها.. وطبعًا مكنش ينفع أضيف الخاتم غير بالطريقة دي.. كان كل همي أقدم لفتة رومانسية، ما خطرش في بالي إن الموضوع يوصل لسم وقتل.. أنا كنت بحبها يبقى هقتلها إزاي وبالطريقة الساذجة دي!؟"

لحظات من الصمت تلت اعتراف (مازن) الذي أشفق على نفسه الشقية، مرة بخسارة حبه الكبير الذي أودى به حد الغرق، حيث فقد قدرته على انتشال نفسه من براثن العشق والوله، ومرة أخرى بخسارة حبيبته المقتولة.

لم تطل غيمة الصمت حتى خرقها استفهام طرحه الوالد بحذر على مسامع (إسماعيل):

ـ "الكلام دا حصل في أي ساعة؟"

- "الساعة 2 الظهر.. والضحية ماتت تقريباَ فجر اليوم التاني"

- "وإيه نوع السم؟"

- "(أرسينيك).. مادة سامة على شكل بودرة بيضا سكرية.. يعني من السهل تضيفها لأي طعام بدون ما تظهر.. لما واجهنا الخادمة بحقيقة السم شهدت بأن الضحية أكلت من التورتة المسممة فوراً بعد ما وصلت.. يعني الساعة كانت 2، وبعدها بدقايق أصابها مغص في المعدة وتقيؤ وعرق شديد، وهي نفس الأعراض اللي بتسببها مادة (ارسينيك)"

- "طيب إزاي الضحية ماتت الفجر زي ما حضرتك بتقول؟؟ كان المفروض إنها تموت فوراً"

- "المادة دي نوع قوي من السموم اللي بتسبب الوفاة بعد 12 ساعة تقريباَ.. ودا اللي حصل مع الضحية"

شعر الرجل بخيبة أمل مع المعلومات التي عرضها (إسماعيل)، كان الرجل يثق تماماً بأن ابنه لا يجرؤ على قتل فأر عن عمد، فما بالك بإنسان!؟ لا شك أن هناك خطأ ما، فلم يفتأ أن يدافع عن (مازن) ليحيد عنه التهمة:

- "كل اللي حضرتك قلته ما يثبتش التهمة على (مازن)"

- "ولا ينفيها.. سبب الجريمة واضح، وهو التورتة، و(مازن) اعترف مع شهادة فتى المحل.. وشهادة الخادمة بالخلافات اللي حصلت مؤخرا بين (مازن) و(نجوان).. واعتراف (مازن) نفسه بالخلاف، وبغيرته عليها لما عرف إنها بتحب واحد غيره.. ودا دافع قوي للقتل"

كانت أركان التهمة مكتملة في قضية (مازن) إلا أن والده كان له رأي آخر حثه على الإصرار في دفع التهمة عنه بأي وسيلة، ومع خبرته الطويلة بمحفل المحاكم كان على ثقة بقدرته على انتشال ابنه من تلك الورطة التي نصبها لنفسه، والتي ستوثقها كل صفحات الجرائد المتعطشة لجلد المشاهير، والنيل من سمعتهم.

"أين الهوية؟

في زمان كُبلت فيه القضية

وميراثنا عن معاركنا الأبية!

كم من ضحية..

ضُيعت أحياؤها بين البرية

ضلت لتبحث عن هوية!؟"

-13-

عادت إلى شقتها بعد أن استعادت عافيتها، قضت ليلتها الأولى بمشقة، حتى بعد مرور تلك الآونة الصعبة لم تنتزع من رؤياها ذكرى الحادثة الأليمة، خامرها الأرق.. لم يكد يجذبها النعاس سوى ساعتين متقطعتين، كان تأجج أفكارها أكبر من حاجتها الماسة للراحة، ليس هذا فقط، ومشاعرها الحبيسة التي خنعت لمواجهتها أخيرا، على قدر ألمها الكبير بمغادرة منزل أصدقائها إلا أنها خشت إن مكثت لفترة أطول أن تتورط أكثر بمشاعر لن تقوى على تحملها، اعترفت لنفسها للمرة الأولى بعشقها لـ(إسماعيل)، ألقت سهام اللوم على القدر الذي لم ينعش قلبها الأجدب لأي رجل آخر إلا لزوج صديقتها، من بين كل الرجال الذين مروا بحياتها لم تنتفض عواطفها إلا له، لطمتها أمواج الحيرة كيف يمكنها أن تتحمل النار الملتهبة في صدرها كلما التقت به؟ وإلى متى عليها أن تتحمل غربتها عنه؟ لحظات عصيبة نمت بها مشاعر حقد وكراهية كانت تدفعها بكل ما أوتيت من قوة حتى تجنب (نغم) مغبة هذا الذنب الذي عليها أن تتحمله وحدها دون المساس بسعادة صديقتها، تذكرت حديث (كاثرين) عن ثلاثية العاطفة، ما أشقاها إن مكثت في كتمانها إلى الأبد! وما أتعسها إن دمرت سعادة صديقتها التي لا تملك سواها بهذه الدنيا! فما عساها أن تختار إلا التضحية بسعادتها، والأحرى بها أن تنتظر حتى تُحصِّل رصيد مقاومتها، أليس الحب بقادر على أن ينتزعنا من سطوة عقولنا وصواب الاختيار!؟

كان شغفها بالعودة للعمل مثيرًا لسرعة استعدادها للخروج، قادت سيارتها باندفاع، لم تدرِ من أين دبت تلك الطاقة بجوارحها، تاقت نفسها لممارسة الترجمة ذلك العمل الذي طالما عشقته، وخاصة بمشاركة (نغم) والبقية من زملائهما، حينما وطأت قدماها المكتب للمرة الأولى بعد الحادثة الغاشمة. استقبلها أقرانها بحفاوة بالغة، كان قدر اشتياقهم إليها أبلغ مما تطلعت إليه، كانت سعادتها غامرة وابتسامتها تكلل وجهها المنتعش بإحاطتهم واحتوائهم لها، دعتها (نغم) لمشاركتها بترجمة ما في متناول يدها من كتاب (الأعمدة السبعة للشخصية المصرية) إلى أن تحصل على نصيبها من توزيع الأعمال الجديدة، شرعت (سلمى) في قراءة الجزء الذي توقفت عنده صديقتها:

"تعايَش الأقباط مع المسلمين في كل بيت وزقاق وحارة وقرية ومدينة، ومن هنا كان هذا الانتشار للأقباط في كل موقع في مصر، لم ينعزلوا في منطقة كما هو الحال في لبنان، ولم يرفع أحد على أحد سلاحًا على مدى التاريخ إلا لخصومة فردية، ولا يجد الأقباط أمانًا لهم في مصر إلا في هذا الانتشار والوجود في كل مكان، وقد قاوموا.."

توقفت (سلمى) عن المتابعة مع نظرات (نغم) المبهمة خلف ابتسامة ماكرة، فتساءلت بخجل يتوارى خلف ابتسامة متبادلة:

- "إيه.. أنا قلت حاجة غلط!؟"

- "إيه يا بنتي أنا مش ملاحقة أترجم وراكي.. بالراحة عليا"

- "بصراحة أخدني المقطع قلت أكمله مرة واحدة"

ـ "معنى كدا إننا مش هنترجم غير لما تخلصي قراءته.. اتفضلي كملي وسمعيني.. أنا كمان برتاح للكلام عن السلام بعد تخمة أخبار الحروب اللي بنتابعها كل يوم، وكلها بسبب تعصب أو طمع"

كانت (نغم) قد حررت القلم من بين أصابعها مُعلقة أبصارها على صفحات الكتاب الذي تحتضنه (سلمى) بين كفيها، لتُباشر الأخيرة القراءة:

"وقد قاوموا على مدى أربعة عشر قرنًا حتى في عهود الاضطهاد أن يتقوقعوا داخل سور أو منطقة، ورفضوا فكرة (الجيتو) التي مارسها اليهود في كل مكان عاشوا فيه، فأنشؤوا منطقة أو حيا تجمعوا داخله، ورفضوا إقامة الغريب فيه، وكان لهم منطقة معروفة باسم (حارة اليهود) في حي الموسكي بالقاهرة حيث كانت إقامتهم في مصر، ولم نسمع عن يهودي مصري عاش في قرية بعيدا عن قومه"

توقفت (سلمى) عند هذه الكلمات، فباغتتها (نغم) بما يجول في باطنها:

ـ "تفتكري كانت مصر هيبقى شكلها إيه لو المسيحيين اتبعوا (الجيتو) زي اليهود؟"

ـ "أنا مش هتخيل أبدًا أي علاقة تعزل الناس عن بعضها بسبب الدين.. إحنا في أمس الحاجة إننا نعيش مع بعض على إننا كيان واحد.. إنسان يتعايش مع آخر بيحتاج له ويقبل وجوده رغم الاختلاف.. وعمرنا ما هنكون كلنا فكر واحد ومنهج واحد لكن على الأقل لازم يكون هدفنا واحد.. والاختلاف ضرورة حياة"

ـ "مش بس كدا.. الاختلاف بيجبرنا إننا ندور على الحقيقة"

ـ "عندك حق"

ترامت حلقة النقاش إلى (داليا) إحدى زميلات المكتب التي انضمت لاستعراض رأيها:

ـ "حتى الرسول عليه الصلاة والسلام كان مؤمن بالاختلاف والمعايشة مع الأقباط، وفي عهد الدعوة اشتد إيذاء كفار قريش للمسلمين، وشكا بعضهم لرسول الله، فنصحهم بالهجرة لبلاد الحبشة المسيحية وقال: "فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه".. يعني الرسول -عليه الصلاة والسلام- ماكانش قلقان على المسلمين من فتنة اختلاف الدين"

وقفت (نغم) ملتقطة قلمًا كبيرًا، تحركت ناحية لوحة بيضاء معلقة على الحائط، خطت (نغم) على اللوحة هذا السؤال.. "إن قرأت الأجيال القادمة عن الوضع الإنساني المعاصر لبلادنا.. فماذا سيقرؤون؟".. انتبهت (سلمى) وباقي الزملاء بالمكتب إلى السؤال الذي اخترق عقولهم، همت (سلمى) بأخذ القلم لتكتب إجابتها:

"اغتراب"

توالى الباقون في الكتابة: "تحرش واغتصاب".. "تعصب".. "قتل وإرهاب".. "فقر وقهر".. "طمع".. "حقد وكراهية".. "شحاذين يبيعون المناديل".. "تجار دين".. "محللون سياسيون".. "برامج توك شو".. "سينما الرقص والشقلبة"..

ـ "يعني إيه!؟ مفيش حاجة حلوة أبدا في عصرنا!!؟"

تساءلت (نغم) باندهاش.

ـ "فيه طبعًا"

أجابت (سلمى) وهي تكتب تلك الكلمات على اللوحة:

"الواي-فاي"

"الفيس بوك"

"العالم الافتراضي والموازي"

تسللت ابتسامة متبادلة على الشفاه تنم عن تأييد الجميع لما كتبت (سلمى)، فقد أصبح العالم الإلكتروني هو العالم الذي يلتجئ إليه الكثيرون هربًا من قسوة الواقع، وبالرغم مما ينجزه العالم من تطور صناعي وعلمي إلا أن الإنسانية تتقدم هي الأخرى ولكن إلى الخلف، لذا يلوذ معظم الهاربين من الواقع إلى الشبكات الاجتماعية باختلاق شخصيات افتراضية يجسدون فيها ذواتهم الحقيقية المعبأة بمشاعر إنسانية يعجزون عن ممارستها في ظل الصراعات الواقعية على الماديات، عصر الجنون الذي يخلق من الأليف وحشًا كاسرًا، ومن الملاك شيطانًا، ومن المظلوم ظالمًا، وربما كان هذا القانون الذي اتبعته غالبية البشر ظنًا منهم أنه السبيل الوحيد للحفاظ على الوجود.

اشتباه

"ربِّ إليك المشتكى

وليس غيرك أقرب

انتَ الرجا..

ومن بذكرك يتعب!

فاجمع شتاتي بوصلك سيدي

واطفئ بعفوك ظمأ قلب أجدب

انشلني من هفواتي وذلتي

والطف بنفس إن أغواها ذنب تعتب

يا مالكًا أنفاس مرجعها إليك

بحولِ منك الروح تُهب وتُسلب

طمِّن فؤادي بنيل غايته

ففي غِناك ما أريد وأطلب"

اشتباه

-14-

انتهى يوم العمل، وترافقت الصديقتان على الموعد المتفق عليه، انطلقتا بسيارة (سلمى) إلى منقطة المقابر بحي البساتين حسب العنوان الذي حصلت عليه (نغم) لتستعين بأحد الأولياء من الذين تشاع سيرهم بالبركة والموالاة لله بين بعض الناس من الذين تآكلت قلوبهم بنيران اليأس، فتكون استعانتهم الأخيرة بهؤلاء.

لأول مرة تطرق أقدامهن هذا المكان الموحش، تتحسسان خطواتهما في وجل واستنكار، لطالما خرقت أسماعهما حكايات عن تلك المناطق العشوائية، وما يدب بها من معاناة وبؤس، لكنها المرة الأولى التي تخوضان بها التجربة على الواقع، وتتأملانها بوضوح، مساكن مضمحلة خلف البنايات الشاهقة، أحياء يجاورون الأموات، حياة لا تعرف الآدمية، أحياء ينامون خائفين من اللصوص الذين يطرقون الأبواب ليلًا فلا يُسمع سوى صمت الموتى وصرخات المودعين، ولا يُتنفس إلا رائحة العظام بعد تحللها، حتى ابتسامة الأطفال باهتة لا تكاد تُرى تُسدرها هموم عميقة أكبر من أعمارهم. كانت نظرات (سلمى) و(نغم) تشيان بحالة الارتعاد التي تتوعدهما، وتخفق نبضاتهما بقوة مع كل خطوة تُدنيهما من المكان المقصود، ذابت قدماهما بالأرض فجأة مع صوت أجش يستوقفهما، تتبعت أبصارهما مصدر الصوت لترمقا بحذر امرأة اغتال الفقر والشقاء ملامحها اليابسة، كانت تجلس القرفصاء على طرف رصيف ضيق يحاذي الممر الذي يعبران خلاله، حدثتهما المرأة:

- "مكانكم مش هنا"

ثقبتها الفتاتان بنظرات متسائلة حائرة، كان منظر المرأة كفيلًا بأن يبعث في نفسيهما الرعب خاصة بعد هذه الدقائق التي ارتادتاها بهذا المكان الموحش، تساءلت (نغم) بتردد:

ـ "تقصدي إيه يا ست!؟"

أجابت المرأة وبصرها معلق على (سلمى) الواقفة في صمت:

ـ "قصدي إن الطريق دا خطر.. كل الناس الأغنيا زي حالاتكم بنشوفهم هنا علشان ناقصاهم فرحة.. فرحة واحدة منغصة حياتهم.. مش مهم هياخدوها من مين المهم أنهم ياخدوها حتى لو هيشتروا وهم"

كانت كلمات المرأة مؤيدة لأفكار (سلمى) المنددة بالسحر والدجل، فاستدركت الحديث:

ـ "تقصدي يا ست إن الشيخ دا دجال؟"

ـ "ياريته دجال.. دا أقل من كدا بكتير.. بس مين هيسمع لكلامي!؟"

أجابتها (نغم) بلهفة تنم عن عدم تصديقها لكلام المرأة:

ـ "كلامك ما يدخلش عقل.. طيب والناس اللي اتعاملوا معاه، وقالوا عليه بتاع كرامات ومن الأوليا!؟"

أجابت المرأة دون أن تلتفت إلى محدثتها، لازالت تبتلع (سلمى) بنظرات مختلطة أصابت الفتاة بالارتباك:

ـ "الغريق بيكون أعمى عن كل شيء حتى عن اللي خلقه.. ما بيشوفش غير القشة اللي يتعلق فيها حتى لو هتغرقه.. انتو عارفين

إن الطريق دا وهم.. ارجعوا لربنا واسألوه مفيش حجاب ولا وسايط بينكم وبينه"

ارتجفت جوارح الفتاتين مع احتداد صوت المرأة الغريبة، أطلت نظرات استعطاف من عيني (نغم) تبادلتها بين (سلمى) والمرأة، تمنت في داخلها لو أنها لم تلتقِ بهذه المرأة التي رفعت الغطاء عن معارك الضمير الجائرة بعقلها، إنها على بُعد خطوة من أمل سعت إليه بضراوة، أمل أثنى عليه من سبقوها وأرشدوها لاتباعه، بررت موقفها:

- "لكن فيه ناس أعرفهم حققوا اللي بيتمنوه عن طريق الشيخ (عبد الرحيم)، ليه ما يكونش سبب ربنا حطه في طريقي!؟"

- "يا بنتي أنا عارفة إن كلامي مالوش قيمة.. اليائس أعمى ولو كان بصير.. انتو مش أول ناس ومش هتكونوا آخر ناس"

تبادلت الفتاتان نظرات مترددة تنم عن قرار يتخبط في دائرة الحيرة بلا مناص، أرادت المرأة توكيد رأيها في إصرار منها على تنحيتهما عن مِرامهما، فاستطردت ونظراتها لا ترتد عن وجه (سلمى):

- "بصو حواليكم.. اسألوا نفسكم بركات الشيخ (عبد الرحيم) ما نفعتش الغلابة اللي عايشين هنا ليه!؟"

كان ذهول (سلمى) بنظرات المرأة أشد من أن تنتبه لكلماتها، اعتلاها الفضول فاقتربت من (نغم) هامسة مُشيحتين بوجهيهما للناحية الأخرى لتجنب إنصات المرأة للكلام:

- "(نغم).. أنا قلقانة من الست دي.. نظراتها غريبة"

- "يمكن بتشبه عليكي"

- "تفتكري؟"

- "مفيش سبب تاني"

انتهيا من تهامساتهما، والتفتا تجاه المرأة، فلم تجدا لها أثرا، كأن أحد المقابر المترامية ابتلعتها بين أغوارها، ثار الفزع في أوصالهما، فاستجارت (سلمى) بنظرات متوسلة إلى (نغم)، تمنت لو أنها تقدر على تنحية صديقتها عن هذا الطريق لولا أنها دومًا تترك لها حرية الاختيار دون ضغوط، بالرغم من شعورها أحيانًا بأن الصداقة تفرض عليها أن تمنعها بحزم من أي ضرر يمكن أن يلحق بها، حاولت أن تثنيها عن نيتها وتعود بها بالقوة إن لزم الأمر، إلا أنها لمحت دموع صامتة تترنح على وجنتي (نغم) معربة عن استسلامها لمشيئة الله، التفتت (نغم) بجسدها لطريق العودة، مما أبهج مشاعر (سلمى) التي لحقت بها وهي تحتضن كفها بين يديها؛ لمواساتها باعثة لها برسالة تأييد لقرارها الحر. في تلك اللحظة احتوتها فكرة الحب الإلهي، كانت على يقين بأن هذه المرأة لم تقبع في طريقهما صدفة، إنها مأمورة مثلنا جميعًا، فكل إنسان منا مسخر في طريق الآخر لمهمة معينة في وقت محدد يضعه القدر، ياليقين الرحمة الذي تخللها لدقائق ولمس قلبها المضطرب، ليطمئنها بأن الله دومًا معنا لا ينسانا، يراقبنا ويرعانا بحكمة عظيمة لا ترتقي لعلمنا الضئيل.

"لا تنتقص حُلمي إن ناشدت إنسان

في مقدوره يغمر الأرض سلامًا وأمان

يُقلع يرقات الحقد، ويُغدق حُبًا وإيمان

ويطوف على كل الأكوان

يغمس فرشاة الألوان

شمسًا.. نهرًا.. ظلًا.. بحرًا.. زرعًا.. ومكان

ويَخيط بِساطًا ذو أفنان

مجدول الود على الأركان"

-15-

بخطوات مترددة رافقت (يحيى) إلى صالة التمارين الدفاعية بالنادي، كانت ابتسامته طوال الطريق تبعث إليها بهمسات من الارتياح الذي خبا رويدًا رويدًا كلما دنوا من الصالة، زادت حدة خفقاتها حينما أطلت ببصرها على عشرات الفتيات الجالسات أرضًا على شكل مربع يحطن فيه جميع الاتجاهات بالصالة المغلقة، وفي المنتصف فتاتان تؤديان عرضًا لبعض الحركات، مع شرح مُسهَب يصدر من إحداهما لتفسير كل حركة، تيقنت من هوية المتحدثة، والتي لابد أنها (ندى محفوظ) كابتن التدريب التي أولاها (يحيى) بالكثير من الحديث عن سجيتها ومهاراتها البدنية. تنبهت (ندى) لوقوفهما لدى الباب، فأعلنت عن انتهاء التمرين الجماعي لمن يرغب في المغادرة لهذا اليوم، هرولت ندى (مرحبة) بالزائرين، وبحفاوة خاصة رحبت بـ(يحيى) مما أوحى لـ(سلمى) بعلاقة قديمة جمعت بين الملتقيين، قدمها (يحيى) لـ(سلمى):

ـ "(ندى محفوظ).. جيران وأصدقاء دراسة من ابتدائي إلى الجامعة.. أنا دخلت شرطة، وهي دخلت تربية رياضية.. وبعدين اجتهدت وزي ما انت شايفة بقت أحسن مدربة تايكوندو في مصر"

حلقت ابتسامات متبادلة بينهم، ومع تبادل التحية بين (سلمى) و(ندى) استطرد (يحيى):

ـ "(سلمى مراد).. اللي كلمتك عنها.. ومش هوصيكي بعد ما تخلص التدريب تبقى أقوى من (ترابل إتش) نفسه"

أثارت كلمات (يحيى) ضحك الفتاتان، أخذت (ندى) بكف (سلمى) بين كفها في لين متأهبة للبدء في مهمتها، محدثة (يحيى) بمزاح اعتاد عليه:

ـ "متقلقش على (سلمى).. انتَ كدا دورك انتهى اتفضل من غير مطرود ورانا شغل"

ـ "بقا كدا!؟ أوامرك يا كابتن"

تطلعت (سلمى) حولها لتفاجأ بالصالة التي عَجّت بالفتيات منذ قليل قد خلت تمامًا إلا من ثلاثة فتيات، إحداهما تؤدي بعض تمارين الإحماء داخل مربع اللعب. اتخذت (سلمى) مكانها للجلوس بجوار الفتاتين الجالستين على مقاعد المشاهدة بعد أن وجهتها (ندى) للانتظار ومراقبة التمرين، دب الصمت الأجواء إلا من صوت (ندى) التي بدأت بمحاضرة نظرية:

ـ "انتو أول مرة تحضروا معايا.. وكل واحدة فيكم مرت بظروف قهرية خلتها تدور على طريقة تدافع بيها عن نفسها بدنيا.. أهم درس في تمارين الدفاع عن النفس هو الثقة بالنفس.. انتو مش بس بتتعلموا حركات دفاعية.. لأ انتو كمان بتوالي التمارين هتعززوا ثقتكم بنفسكم.. لأن أي حركة هتأدوها بدون ثقة مالهاش أي تأثير على الخصم.. كل المطلوب منكم النهاردة التركيز وبس، والتمرين الجاي هتبتدوا العملي"

تطرقت محاضرة (ندى) إلى العنف المتفشي في المجتمع ضد المرأة، لم تكن لتبحث المرأة عن طرق لتدافع بها عن نفسها لولا تفجر براكين من العُقد النفسية والمعتقدات المتأصلة ضدها، كأنها العدو الذي يسعى أشباه الرجال للانتقام منه، ويجسدون هذا العنف بصور

مختلفة سواء كانت بألفاظ جارحة أو حتى نظرات إهانة وازدراء وأكثرها ضراوة هو التطاول بالأيدي. كان لكلمات (ندى) الأثر الموجع في نفس الفتاة الجالسة على يسار (سلمى)، انفجرت الفتاة بعاصفة من الدموع والنشيج، مما دفع (ندى) لطي صفحة التمرين الأول، تحركت (ندى) صوب الفتاة واحتوتها بين ذراعيها حتى هدأت، ثم تركتها في صمت لتجلب لها كوب من الماء البارد، سألت (سلمى) الفتاة عن سبب بكائها، فما كان منها سوى الإفصاح بألم عن معاناتها لعلها تلوذ ببعض الراحة جراء تفريغ أثقالها المكتومة:

ـ "أنا متجوزة من أربع شهور.. أسود أيام شفتها في حياتي.. جواز صالونات.. شاب مستواه الاجتماعي ممتاز.. وظروفه المادية كويسة جدا.. مهندس محترم وحسن السمعة بين الناس.. عريس لقطة لأي بنت بتحلم بالمواصفات دي.. في البداية كنت مبهورة بيه وبثقافته بالرغم من إنه قليل الكلام، كنت بطلع منه الكلمة بالعافية، ولو اتكلم بيتكلم عن نفسه وعن ذكائه ومعجبينه بصورة استعراضية.. من كلامه كنت حاسة أنه عايز يتجوز أي واحدة لمجرد الجواز والاستقرار وبس.. مكنش مهتم يسألني عن أفكاري أو اهتماماتي أو بتمنى إيه في حياتي.. مكنتش مرتاحة للجواز، لكن أهلي طبعًا ما اهتموش بكلامي.. في نظرهم عدم الراحة مش سبب كافي لفشكلة خطوبة.. انصعت لرغبتهم، واقتنعت بكلامهم عن المودة والتعود اللي بيجي بعد الجواز.. وأنا كمان كنت طايرة بيه من نظرات إعجاب صديقاتي اللي شافوا صوره، وحسدوني على وسامته ومركزه الاجتماعي.. وبعد الجواز شفت الوش الأسود اللي مكنتش متخيلاه.. إهانات وتحقير مستمر.. وتطاول بالضرب حتى مابيفكرش يسمعني.. أنا في نظره خدامة يقولها هاتيلي كوباية مية، والكوباية لو مد إيده

من مكانه هيطولها.. اشتكيت لأمه قالتلي معلش أصله وحيد وعمرنا ما حرمناه من حاجة وطلبت مني أعامله بسياسة.. جربت كل الطرق معاه بس واضح أنه مرتاح على كدا.. بالنهار في شغله، وبالليل بيكمل حياته على النت، وشغلتي إني أقدم له الأكل والقهوة، وهو في مكانه حتى مش بيلتفت لي.. انتهزت فرصة سفره شهر علشان أحضر التمرين، وأقدر أصد عنفه، وأقابله بعنف أكبر إن لزم الأمر"

دغدغت حكاية الفتاة مشاعر (سلمى)، والفتاة الأخرى المنزوية في أقصى اليسار والتي دمعت عيناها في صمت وهي تربت على كتف الفتاة بحنان، تنبهت (سلمى) لحقيقة واقعها الذي لا يمكن مقارنته بقساوة ما يمر به الأخرون، فإن كانت تعاني من مرارة الفقدان فهاهي تلمس أوجاع أكبر تكابدها غيرها من الفتيات المحاطين بضمة العائلة، وقد تشتد الضمة حد القيد والإيذاء، مثلما حدث مع هذه الفتاة التي تجهل بأي اسم تناديها، فسألتها:

ـ "اسمك ايه؟"

ـ "هند"

ـ "يا هند طيب انت ليه ما طلبتيش الطلاق؟"

ـ "طلبت أكتر من مرة وهو رافض، وأهلي كمان بيضغطوا عليا علشان أكمل معاه"

ـ "معقول أهلك بالقسوة دي!!؟"

ـ "كل اللي يهمهم كلام الناس.. الناس هتقول إيه على بنتهم اللي اطلقت بعد أربع شهور جواز.. أكيد فيها عيب"

ـ "وليه الناس ما يفكروش في العكس؟"

ـ "إحنا في مجتمع شرقي.. بيحط البنت دايمًا في موضع السبب والمشكلة.. الشاب مهما بلغ جرمه بيتغاضوا عن أخطائه.. لكن البنت أي تقصير بسيط منها بيشكل جرم تستحق عليه العقاب"

ـ "عندك حق.. رغم إن الدين ما بيفرقش بين الرجل والمرأة في الأوامر والنواهي"

ـ "إسلامنا شكلي بس.. الحقيقة إن الناس بتخاف من بعض أكتر ما بتخاف من ربنا.. لأن ربنا بيرحم، لكن العيون والألسنة ما بترحمش حد"

ظهرت (ندى) عند باب الصالة، ودون أن تُعرب عن أي تفسير أشارت لـ(هند) بالقدوم إليها، استجابت الفتاة لإشارتها متحركة صوبها، واختفيا عن الأنظار في غرفة مجاورة، مما مهد لفتح الباب لتعارف جديد بين (سلمى) والفتاة الأخرى التي شرعت بتقديم نفسها:

ـ "أنا (ماريان).. آخر سنة كلية إعلام"

ـ "وأنا (سلمى).. بشتغل مُترجمة"

لم تكن (سلمى) ببعيدة عن فهم كنهة الصليب المتدلي من عنق الفتاة، استأثر بها الفضول لتسأل عن المعاني الروحية وراء حمل الصليب، واستبد بها الحرج من السؤال، ولكنها لم تفكر كثيرًا:

ـ "(ماريان) مش عارفة ممكن تتقبلي سؤالي أو لأ لكن.. إيه القيم اللي بيحملها الصليب في معناه؟"

استقبلت الفتاة سؤالها برحابة صدر مع ابتسامة عذبة تنسل من ملامحها:

- "الصليب هو علامة حب وبذل وتضحية وفداء.. وعلامة ألم واحتمال للآلام العظيمة اللي احتملها السيد المسيح لأجلنا، فيمنحنا القوة لمجابهة آلام الحياة وقهر الشيطان"

تأملتها (ماريان) بنفس الابتسامة مستطردة بسؤال:

- "السؤال بسيط والإجابة بسيطة.. يبقى إيه سبب الحرج!؟"

- "يمكن لأننا مش متأكدين من ردة فعل الآخر"

- "صح.. إحنا دايماً خايفين من بعض.. خايفين نصطدم في بعض لأن كل واحد فينا واثق إنه يملك الحقيقة والتاني غلط"

- "مش بس كدا.. كل واحد مننا عنده إصرار إنه يغير التاني.. كل واحد مننا شايف إنه نبي، ومهمته يجذب المخالف لشريعته.. أو بالأحرى شريعة هواه اللي بتحرضه على الانتصار لفكرته.. علشان كدا بتلاقي أغلب المناقشات ضاربة عرض الحائط"

- "وحتى الأنبيا ربنا أخبر النبي محمد في القرآن بـ: "ليس عليك هداهم والله يهدي من يشاء""

استهوت (سلمى) ثقافة ماريان بالقرآن الكريم، فبادرتها ابتسامة ودودة أعقبت كلمات الفتاة المطّلعة وصاحبها تأييد وثناء:

- "انت كمان مطلعة على آيات القرآن!؟"

- "وسيرة النبي محمد"

- "وياترى نابعة عن سبب معرفي؟"

- "حياة واحدة بنشترك فيها مع اختلافات عقائدية.. ضروري نتجول في عقيدة الآخر علشان نقدر نتفاهم ونوصل لنقطة اتصال"

- "فكر سليم من إنسانة واعية.. والأديان كلها لها نفس الدعوة بالقيم الإنسانية النبيلة.. إني أكون إنسان كاف لإني استحق الحياة.. مش مهم إن الجميع يتبع نفس المسار، لكن المهم إنه يكون مؤمن بقواعد التعايش"

- "السلام.. الحب.. الاحترام.. القبول.. العطاء.. التعاون.. الصبر.. التسامح"

مشاعل صداقة أوقدت بقلبي الفتاتين اللتين اجتمعتا على أفكار إنسانية واحدة، فتكون الصداقة رغما عن الاختلاف، وإن كان بعض البشر يخشى الاختلاف، وينشد تأييد العالم حتى يشعر بالطمأنينة لصواب أفكاره، وذلك لأن الاختلاف ينزعه من مساحة الأمن إلى متاهة الشك مما يدفعه لضرورة البحث عن الصواب.. وهذه هي أكبر مخاوفه (مشقة البحث).. كان يكفيه أن يرضخ لميراث أبائه وأجداده دون أن يُحلق بأفكاره إلى قمة اليقين.. اليقين بالله والإيمان الخالص الذي لا تطرقه شائبة.. الإيمان بأن الدين لله وحده، وأن الإنسانية أُوجدت للجميع.. لكل مخلوق يشعر ويتنفس وينعم في حياة وهبها الله له.

ابتغت (سلمى) توطيد صداقتها مع الفتاة، إلا أن رنين هاتف (ماريان) كان مدعاة لإنهاء اللقاء، راقبت (سلمى) تلك النظرة التي قفزت من عيني الفتاة أثناء تلقيها للمكالمة، تلك النظرة التي تحفظها عن كثب واشية بأسرار المحبين، وبعد أن وضعت الفتاة

هاتفها بحقيبتها تأهبًا للمغادرة، ألقت السلام على (سلمى) في عجالة وغادرت.

لبثت (سلمى) وحدها بالمكان بغية أن تلقي التحية على (ندى) قبل مغادرتها، فدلفت للبحث عنها بالغرفة المجاورة لكنها لم تجدها، غير أنها التقت امرأة تعمل بالنظافة تنهمك في مسح الغرفة، أشاحت المرأة بجسدها في حركة مرتبكة فور اصطدام بصرها بوجه (سلمى)، مما أثار ريبة الفتاة، دارت (سلمى) بخطواتها للناحية الأخرى بقصد إلتقاط وجه المرأة، وعلى الرغم من إصرار المرأة على إخفاء وجهها تحت ستار الإنشغال بالتنظيف إلا أن تلصصًا سريعًا لنظرات (سلمى) تمكن من خطف لقطة مباغتة لوجه المرأة المجهولة، كانت ملامحها مألوفة جدا مما أثار شغفها:

- "إحنا اتقابلنا قبل كدا؟"

- "لأ يا مدام"

لازالت المرأة تحيد بوجهها بعيدًا عن مرأى (سلمى)، كانت (سلمى) واثقة من رؤيتها لهذه المرأة من قبل، فأصرت على اعتقادها:

- "أنا متأكدة إني شفتك قبل كدا.. أيوة افتكرت انت الست اللي قابلناكي في المقابر"

- "مقابر إيه يا مدام؟؟ أنا ماشفتش حضرتك قبل كدا"

كاد الشك يقتلع عقل (سلمى)، معقول أن تكون خانتها الذاكرة أم أن المرأة تنكر هويتها، ولكن ما الداعي لإنكارها إن كانت هي نفسها!؟ حاولت (سلمى) أن تتجاهل ما يراودها من وساوس، لعل ذاكرتها لازالت تطبع صورة تلك المرأة مما صوّر لها أن هناك شبه

بينها وبين عاملة النظافة، ألقت بتلك الأفكار من رأسها بتجاهل، وغادرت الصالة بعد أن يئست من العثور على (ندى)، كانت مصادفة أن لمحت (ماريان) تتجه لنفس البقعة التي أشرفت على الدنو منها حيث يقف (يحيى) برفقة شاب غريب يتبادلان أطراف الحديث بينهما حتى لمح الشاب (ماريان)، فأنهى محادثته بتحية (يحيى) وانصرف برفقتها، في حين لبث (يحيى) ينتظر قدوم (سلمى) التي وافته مباشرة، تساءلت بفضول:

ـ "مين الشاب اللي كنت بتتكلم معاه؟"

ـ "(مصطفى)؟"

ـ "اسمه (مصطفى)؟"

ـ "آه (مصطفى حسانين).. لاعب اسكواش، وعضو معروف في النادي"

كان جوع فضولها يدفعها لطرح مزيد من الأسئلة، إلا أنها خشيت من اعتقادات (يحيى) بشأنها فلاذت بالصمت، لتفادي قارعة سوء الظن التي تبطش بمشاعر السلام النفسي تجاه أي شخص يسقط بدائرة وساوسها.

"ما يؤرقنا في الحب أننا لا نخشاه بقدر ما نخشى الاعتراف به..

وإن أفلحنا في الكتمان لوَشَت بنا الغيرة"

اشتباه

-16-

قبل ساعة..

عاد (يحيى) إلى الطاولة حيث ترك (إسماعيل) و(نغم) جالسين بعد أن غادرهما برفقة (سلمى) لصالة التمرين، وجد صديقه يجلس وحيدًا شاردًا بين أفكاره المبعثرة على ورق خط عليه تلك الخاطرة:

"أيحق لقلبي أن ينهل من شطآن عينيك؟

أيحق لعمري أن يغفو في واحة جفنيك؟

أيحق لتعبي أن يخمد بين ذراعيك؟

إن كنت لي أم لم تكوني..

ففي حنايا القلب أقيم مأواك"

انتبه (إسماعيل) لقدوم (يحيى) فور طعن خواطره بصوت الصرير الصادر من سحب (يحيى) للمقعد المجاور، سريعًا طوى الورقة التي ضمت ما وشت به مشاعره مودعًا بها في جيب قميصه. سأله (يحيى) بفضول بارد:

ـ "إيه يا باشا! قاعد لوحدك ليه؟"

ـ "(نغم) قاعدة مع واحدة صاحبتها على الترابيزة اللي وراك"

ـ "آآه.. وانتَ إيه اللي واخد عقلك؟"

ـ "وَصّلت (سلمى)؟"

ـ "آه يا سيدي كانت متوترة زيادة عن اللزوم.. بس هم كام تمرين مع (ندى) وهتبقى حاجة تانية"

ـ "حاجة تانية إزاي!؟"

ـ "يعني هيقل خوفها وتوترها المستمر.. انتَ ماتعرفش (ندى).. مصيبة متحركة عالأرض"

لاحظ (إسماعيل) خلسات الإعجاب المنطوية بين كلمات (يحيى) كلما تحدث عن (ندى)، فأثار ما يضمره في أعماقه:

ـ "شايفك معجب.. ما تتجوزها وتريحنا"

ـ "ومين قالك إني ما عرضتش عليها الجواز!؟ حضرتها رفضت.. مش عاجبها تتجوز ضابط شرطة"

ـ "وليه بقى إن شاء الله!؟ هي تطول!؟"

ـ "لا الحكاية مش زي ما أنت فاهم.. أنا كنت بفكر زيك، وبعدين اقتنعت بكلامها.. (ندى) مش الشخصية اللي تتأقلم مع حياة ضابط شرطة.. على رأيها حياتنا كلها مشاكل وتوتر، وهي ما تقدرش على كدا.. إلى جانب إني مشغول برسالة الدكتوراة اللي بحضرها.. مين هتستحمل طموحي اللي ما بينتهيش.. انتَ عارف أنا بعشق شغلي ونجاحي أكتر من أي شئ في الدنيا"

ـ "بلاش كلام فاضي.. مصيرك هتتجوز.. ولا انتَ خايف من الجواز؟"

ـ "بصراحة خايف.. خايف على ولادي اللي لسة ما أعرفهمش.. خايف عليهم من الحقد والكره ومن الظلم.. خايف ما قدرش أحميهم.. خايف أتعلق بيهم، وفجأة أخسرهم بسبب إهمال دكتور أو حادثة

قطر أو حرق باص مدرسة أو.. أو.. المهم إني خايف من الواقع عليهم"

ـ "إيه السواد دا؟.. المال والبنون زينة الحياة الدنيا.. وإنت بتقدر البلا قبل ما يحصل ليه؟.. عيش حياتك برا دايرة المخاوف اللي ناصبها لنفسك.. الخوف جحيم الإنسان وعدوه الأكبر"

صفعت أفكار (يحيى) مشاعر (إسماعيل)، طاله العجب من إنسان في متناوله أن ينعم بالزواج ووفرة الأبناء، ويأبى تلك النعم بسبب مخاوف سخيفة، في حين يتعطش شخص مثله لمشاعر الأبوة ويُحرم منها، امتعض من مبررات (يحيى) لتأخره بالزواج:

ـ "انتَ عايز تقنعني إنك بتخاف يا (يحيى) وانتَ من أكفأ ضباط الشرطة!؟"

ـ "في شغلي عمري ما خفت.. حتى فكرة الموت مش خايف منها.. وانتَ يا (إسماعيل) خايف من الموت؟"

سافر (إسماعيل) بخاطره بعيدًا عن المكان والزمان، انزوى في صمته لبرهة، ثم أجاب في شرود:

ـ "أنا مش خايف من الموت نفسه.. أنا خايف إني أعيش ميت"

ـ "تقصد ايه؟"

ـ "لا ما تاخدش في بالك.."

استطرد (يحيى) بحديث آخر:

ـ "تفتكر يا (إسماعيل) ليه الناس بتكرهنا كشرطة؟"

ـ "اللي بيكرهونا نوعين.. ناس بتكرهنا لما نطبق القوانين بعدل على الجميع، وبيكونوا رافضين فكرة إنهم جزء من الجميع، لأنهم بيحبوا يكونوا استثناء بنفوذهم.. وناس تانية بتكرهنا لما ما نطبقش قوانينا على الكل سواء، ويكونوا في موقف المظلوم.. ودول يا (يحيى) هم نفسهم اللي لو خليتهم استثناء هينضموا للمجموعة الأولى.. اوعى تصدق إن الناس بيطلبوا العدل.. المظلومين بس هم اللي بيطلبوا العدل علشان مظلومين، أما لو أخدوا حقوقهم عمرهم ما هيفكروا في اللي ما أخدش.. اتفرج على الناس وهم واقفين في طابور العيش، وكل واحد عايز ينط على دور التاني، ومش مهم التاني دا حاسس بإيه، المهم هو وبس.. اتفرج عليهم وهم بيتصارعوا على المواصلات، أو وهم بيمثلوا الوجع في عيادة دكتور لجل ما يسبقوا غيرهم في الكشف.. مش مهم مين موجوع أكتر المهم أنه يحس بلذة الاستثناء"

ـ "عندك حق.. خليني بقى استفيد من خبراتك في رسالة الدكتوراة اللي بحضرها، واسألك إيه الدوافع المحركة لأي جريمة؟"

ـ "من المنظور العام فكرة الضحية هي الدافع الأول للجريمة.. مرتكب الجريمة دايماً شايف نفسه ضحية لابد تثأر لنفسها من اللي ظلمها أو من أي شخص تاني في دائرة حياته.. الضحية بيكون شخص عاجز عن النجاح، وبيوهم نفسه إن فيه قوى قاهرة تمنعه من مواكبة قطر الصعود.. ويفضل يبرر فشله بملامة الآخرين على تعطيله وتدمير أحلامه.. هي دي العقلية اللي بتتطور للشكل الدموي المعادي للناجحين ومن هنا بتبدأ الجرائم"

ـ "عندك حق.. الإنسان دائمًا ضحية بنظر نفسه"

ـ "أكيد.. اقفل السيرة دي (نغم) جاية علينا"

اقتربت (نغم) بابتسامتها الدافئة، جلست بجوار (إسماعيل) متسائلة عن أحوال (سلمى) في تجربتها الجديدة، كانت نية (نغم) أن تصنع عن عمد بؤرة اهتمام حول صديقتها الغائبة، لتجرف مشاعر (يحيى) تجاهها، وهو ما حازت به في كلامه عنها، عن حسنها وطباعها العطوفة، وشجاعتها في مواجهة الحياة، انساق الحديث لفكرة الزواج التي لمَّح لها (يحيى)، واستساغتها (نغم) بسرور، الوحيد الذي استنكر تلك الفكرة كان (إسماعيل)، دسره العبوس طوال ساعات اللقاء خاصة بعد انضمام (سلمى) للجمع، اقتنصت قلبه مشاعر الغيرة كلما رأى (سلمى) و(يحيى) يتهامسان، بدأ غضبه يتفشى ليفضح ما يختلج بسريرته، حتى أن نظراته هي الأخرى عقدت مؤامرة ضده أمام (نغم) التي لم تجد تفسيرَ مناسب لتصرفاته الصبيانية مع بعض ردود الأفعال، كان المشهد مثيراً لتُصوب (نغم) حلقة انتباهها على نظرات وكلمات الجالسين جميعهم، ومن خلال رؤيتها بدا الجميع على طبيعتهم فيما عدا (إسماعيل)، الأمر الذي لمسته (سلمى) أيضًا، والتي انقبضت لتصرفاته هي الأخرى، فاقتصرت من الكلام مع (يحيى) إلا في إطار ضيق أحاط إجابات مختصرة لأسألته الموجهة إليها، حملت العيون رسالة واضحة لـ(نغم) بوجود خطب شائك لا تفهمه، وكأن صفيحًا ساخنًا مرَّ من تحتهم، ليلدغ ألسنتهم بلهب التمزق، فيالها من لغة تحاكيها العيون! العيون لا ترينا فقط ما يتراءى لها في الخارج، إنها أيضًا تنتهك أغوار الحكايا المنسوجة بدواخلنا لتطفو على السطح، إنها تفضحنا رغمًا عنا.

"أودعتك أشياء مني

فكنت لآلامي أصم

وشربت بكأسك من دمي

فسلبت الصدق من الدم

وهدرت بغدرك أحلامي

ونزعت اللقمة مـِ الفم"

-17-

"أشكر تأييدكم المستمر، وأشعر بأسى بالغ لغياب صديقي العزيز، وحتى عودته سترتقي الشركة بمكانتها أكثر من ذي قبل، فاحرصوا على ذلك"

بتلك الكلمات اختتم (ياسر) الاجتماع العاجل مع رؤساء الإدارات والأقسام بالشركة بعد أن تَصدر مقعد رئيس مجلس الإدارة فى غياب (مازن) خلف قضبان السجن، وبعد أن نالت الفضيحة من سمعة العائلة العريقة، غادر الجميع المكتب تاركين (ياسر) الذي تهلل وجهه بابتسامة عميقة هضمت وجنتيه في جو تَحفه النشوة والزهو، تجول بخطواته متفقدًا المكتب الكبير عن كثب وكأنه يراه للمرة الأولى، لا ريب أنها المرة الأولى التي يشعر فيها بالاستقلالية والتملك، أخذ يتحسس مقعد الإدارة بنهم محرزًا غايته التي طالما سعى إليها وتمناها في أعماقه، كان (ياسر) دومًا يشعر بأنه الأجدر بهذا المقعد رغم امتلاك (مازن) لكل شيء، وهذا ما كان دومًا يثير حنقه وحقده على صديقه، لطالما كتم مشاعره الحقيقية لسنوات احتمل فيها الرضوخ لدور الموظف في مملكة (علوان)، وحان الوقت ليسترد حقه، لم يكن (مازن) في نظره أكثر من شاب مدلل أنشأ شركة بسيطة بأموال والده وقوة نفوذه الطائلة، أما عن المكانة التي استحوذتها الشركة خلال السنوات السابقة فكان (ياسر) هو الساحر الحقيقي الذي طرق بعصاته السحرية على أرض الكنوز ففاضت ببواطنها، صاحب العقل الداهية والإدارة القابضة لزمام الأمور، لطالما كان وجود (مازن) مقيدًا لجموح سلطاته، لم يكن يترك له مجالًا للتفرد بقراراته رغم ثقته الكبيرة به، فكان لتشككات والده طرقات مدوية

تزلزل تلك الثقة في كثير من الأحيان، لهذا السبب لم ينتظر أن يمنحه الشراكة المناسبة لما يقدمه، على الرغم من أن دور الشريك لن يشبع رغباته الطامعة فى التملك والاستئثار بالقرارات لنفسه على أية حال. تنفس الصعداء بعمق وارتياح بعد أن زالت عقبته الكبرى في طريق خططه القادمة، وبعد أن تأكد للجميع استحالة تجاوز (مازن) لتلك الورطة الكبيرة، وإن نجا من قضية قتل (نجوان)، فلن ينجو من قضية دهس الشاب التي لم يسدل عنها الستار بعد.

رفع سماعة الهاتف لإجراء اتصال مع أحد العملاء المقربين منه، محثًا إياه على الاستعداد للشروع في تنفيذ ما اتفقوا عليه سلفًا، سيعرض آلاف السلع من أحدث المنتجات، والتي سيشهدها السوق لأول مرة دفعة واحدة فى الأسواق، وبأسعار زهيدة عن قيمتها الحقيقية، على أن يقوم بدوره كرئيس للإدارة بتذليل المناقصة لتؤول بالنهاية في يد هذا العميل، ليقتنصها كاملة وبالشروط التي يعاونه (ياسر) على تقديمها ليحظى بامتياز التفوق عن باقي العملاء المتقدمين، فتتكبل نواياهم بقيد مشاركة غير مرغوبٍ فيها، كانت خطة (ياسر) الشيطانية أن تكون تلك السلع ملك لشركته الجديدة التى غرس قواعدها منذ أشهر قليلة بمعاونة نفس العميل الذي تجمعه معه مصالح متآلفة وهدف واحد للتفوق في مجالهما واغتنام مزيد من الأرباح، استطاع (ياسر) طوال تلك الفترة أن يختلق من غفلة الجميع باكورة حلمه فى الاستقلالية، وأخيرًا سنحت له الفرصة للمضي فى ما انتواه بدون أية عوائق، وفي اللحظة التى هيأتها له الظروف مستعينًا بثقة الجميع وانفراده بكل شيء، كان على (ياسر) إخفاء علاقته بإتمام عملية الشراء، لذا استعان بمن يلعب دور الستار

الذي يختبئ وراءه إلى أن ينتهي مما أثمره تفكيره المادي من مخططات رابحة تدنيه من حلمه الكبير.

دقائق من التفكير تبعها استخراج شريحة تليفونية من جيب قميصه بدَّلها مع الأخرى المفعلة في هاتفه، أدخل عددًا من الأرقام، ثم أدار زر اتصال، تفنن في التلاعب بنبراته الصوتية على مسامع محدثه:

- "ألو.. (يحيى) باشا!؟ أنا عايز أخدمك في قضية دهس حرامي مصر الجديدة.. اللي قتله يبقى (مازن علوان)"

أغلق المكالمة مباشرة دون أن ينتظر ردًا، كانت رغبات الشيطان الكامن في أوصاله أقوى من أي شعور بالشفقة تجاه صديقه الملقى بالحبس، استخرج الشريحة مرة أخرى، وألقاها في مصرف الحمام، كان قد حصل على تلك الشريحة بشراء هاتف قديم من أحد الباعة الجائلين بعد دفع مبلغ مغري أخرس أي نية للتردد لدى صاحب الهاتف، كان (ياسر) من هؤلاء البشر الذين ينفذون بأفكارهم الذكية عبر أي باب مغلق، يختلقون ملايين القصص، ويلعبون آلاف الأدوار، ثم يذرفون الدموع على ضحاياهم الأغبياء.

كشفت الزوجة المغلوبة على أمرها خيانته بعد أن نفذت وصية والدها في تفتيش أوراقه ومتعلقاته لتخترقها صدمة حقارة الشخص الذى يشاركها حياتها، ويسممها بوابل من فوارق الحقد الطبقي الذي تجلى لها بوضوح منذ زواجهما، أخبرت والدها بما أزاح عنه النقاب، فلم يندهش الوالد بالنتيجة، دائمًا ما كان الشك مقترنًا بعلاقته بـ(ياسر)، وكل ما منحه له لم يكن عن طيب خاطر إلا بموجب الضغط المستمر من طرف (مازن) الحنون الذي أقحم

صديقه بسذاجة في طيات كتاب العائلة، أما هو فمنحته الحياة من الحنكة ما لم يعه ولده حديث التجربة، أمضى الكثير من الوقت فى تفحص ما حصل عليه من أوراق تفضح فساد زوج ابنته فى استغلال نفوذه وعلاقاته التي وطدها عن طريق عمله بالشركة للتربح الشخصي والتلاعب بالإيرادات بشكل دقيق، كانت مؤهلات الشاب كفيلة بأن تودي به إلى قمة الطموح لدرجة بالغة وأدت بإنسانيته وجعلت منه قلباً أجوف، تناسى ما قدمته له تلك العائلة التي احتضنته ونسجت له من الأحلام ما لم يكن ليحوذ به فى حياته المعدمة.

مجدداً داهمته صفعات المرارة بعد استقباله مكالمة من أحد العاملين بالشركة، اتضحت له المكيدة الجديدة التى أعدها (ياسر) للتكسب من وراء ابنه المُلقى في غيابات السجن، أراد الرجل التأكد من صدق الرسالة التى حصل عليها، فأجرى اتصالاً بالشريك الوهمي لـ(ياسر) في الصفقة الأخيرة لبيع الأجهزة، وبعد ضغط متواصل على الرجل تيقن (خيرت علوان) من صدق الرسالة بخصوص ما تردد على مسامعه من استقلال (ياسر) بشركة خاصة في الباطن. استجمع الرجل عقلانيته لكظم غضبه محاولاً الإلمام بكل ما حصل عليه من معلومات تدين صهره الخائن، شعر الرجل أن هذا ليس كل شيء وأن ما خفي أعظم مما اتضح، انتابته الشكوك حول طبيعة (ياسر) القاسية فإن كان يمتلك من القسوة ما مكنه من خداع صديقه فى العمل فلا شك أن هناك خيوطًا مقتطعة في حادثة القتل لم تتصل بعد لكشف الحقيقة، كان على الرجل أن ينقل تلك المعلومات والهواجس لـ(إسماعيل)، لعله يهتدي إلى الحقيقة الضائعة، حصل

منه على موعد، وسرد عليه كافة تفاصيل الحكاية على أمل أن يثير أمراَ جديدًا في البحث عن الجاني الحقيقي.

"عقيدة الحب.. أنه لا يؤمن بعقيدةِ غير عقيدته"

-18-

في اليوم الثاني من التدريب، كانت (سلمى) أول الوافدين لصالة التمارين. استقبلت الجميع، وحظيت بعلاقات جديدة مختلفة مع نظيراتها من النساء اللواتي تباينت دوافعهن للإقبال على تمارين الدفاع عن النفس، تجولت ببصرها باحثة عن (هند) التي افتقدتها هذا اليوم، ولم تكن تعلم أنها ستفتقدها للأبد بعد أن أعلنت (ندى) عن اعتذار (هند) عن مواصلة الدروس بسبب ظروف غامضة، اجتثت الوساوس عقلها المثخن بالشفقة على الفتاة التي عقدت كتاب زيجتها على الجحيم ذاته، انتبهت (سلمى) لضرورة التركيز على ما قَدمت لأجله، فحاولت أن تتجاهل التفكير بـ(هند) ومأساتها، حيث أنها لم تقدم لهذا المكان من أجل الانشغال بأوجاع إضافية تثقل آلامها المبرحة، فاستنهضت (سلمى) همتها لتكون أكثر حماساً وتأهبا عن المرة السابقة، ارتدت بزة التمرين البيضاء، وانتظرت دورها بين اللاعبات، حتى دعتها (ندى) لتجرب أول ممارسة لها على حلبة الواقع، وقفت في مواجهة المدربة المحترفة، والتي بدأت الدرس بالتركيز على العيون، على الضحية أن تنتبه جيدًا لعيون المهاجم، ولكل حركة يشرع في فعلها، هو يرى أن مهمته هينة، وعليها أن تقنعه بذلك ظاهرياً أما في قرارة نفسها تقول: "لست أنا الضحية".. فقط عليها أن تكون واثقة تماماً في قدراتها، وأنها لن تسمح له بالانتصار عليها في أي حركة أو إيماءة، بدأت تشرح بعض الحركات بإسهاب، كانت الحركة الأولى تصف إحكام قبضة المهاجم على رسغ الضحية، وكيف لها أن تنتزعها بسلاسة، صورت المشهد مرئياً عندما قبضت بكفها الأيمن بشدة على الرسغ الأيسر لـ(سلمى)، ثم دعتها

للف رسغها وإفلاته عند التقاء عظمة الرسغ بأطراف أصابع المهاجم في حركة سريعة ومباغتة لن يشعر بها إلا بعد تحرير اليد من قبضته، كررت الحركة أكثر من مرة حتى أدتها (سلمى) بسرعة وبراعة أثنت عليها (ندى) بابتهاج.

هكذا كانت البداية بسيطة، ثم توالت الحركات الأكثر صعوبة مع تبادل اللاعبات، تفاعلت (سلمى) مع التمارين، وشعرت بتسلل خطوات الثقة ببدنها وحركاتها رويدًا رويدًا كما أخبرتهن (ندى) في اليوم الأول أن الثقة تنبع من التجربة، ومن ثم التدريب على الممارسة حيث يصعد التدريب بصاحبه إلى أوج التمكين، ومن ثم يُكلل بالثقة.

انتهت (ندى) بحصتها لهذا اليوم، وبدأت المحادثات النسوية التي تتسع لها الأسماع عقب كل تمرين، أولت (سلمى) اهتمامها بـ(ماريان) التي امتقع وجهها من الحزن على عكس ما ألفته فيها في المرة السابقة من سجية مرحة مفعمة بالحيوية وحب الحياة، حاولت (سلمى) نبش السر وراء الفتاة:

ـ "(ماريان).. فيه حاجة مضايقاكي؟"

ـ "لا أبدًا"

رن هاتف (ماريان) مجدداً للمرة العاشرة خلال دقائق، وهي ترقب في صمت الرقم المتصدر شاشة هاتفها دون أن تجيب، لاحظت (سلمى) ردة فعلها الغاضبة مع كل رنين، سألتها ثانية:

ـ "مش حابة أكون متطفلة، لكن إحساسي إن سبب عاطفي ورا ملامح الحزن اللي على وشك"

رمقتها (ماريان) بنظرة استسلام ورضوخ، كأنها تؤيد استنتاج (سلمى):

ـ "أهلي بيتصلوا عليا علشان النهاردة موعد الصلاة في الكنيسة"

ـ "طيب وليه ماتروحيش؟؟ مش جايز دا يخفف عنك الحزن اللي انت حاسة بيه"

ـ "لأ أنا مش عايزة أدخل في مواجهة معاهم"

ـ "مش فاهمة قصدك إيه"

ـ "دي حكاية طويلة"

ـ "ممكن أعرفها؟"

لأن الصمت هو تلك المساحة التي يحدوها الظل بدواخلنا، ونبدع في مواراتها عن من لم يبلغوا أنين حروفنا، صمتت الفتاة لثوانٍ قبل أن تحسم قرارها بالإفصاح:

ـ "الحكاية بدأت من سنة، كنت راجعة من عيد ميلاد صديقة، وكان الوقت اتأخر، لقطني واحد، وفضل ماشي ورايا بمعاكسة سخيفة.. كنت ميتة من الرعب، ما انتبهتش للطريق.. اتكعبلت في طوبة، ووقعت على الأرض، صرخت بصوت عالي، وفجأة لقيت شاب بيجري من الناصية التانية ناحيتي.. طبعًا الأفندي اللي كان بيعاكس أول ما شافه هرب.. وصل الشاب وساعدني على الوقوف، لكن رجلي اتلوحت، فصرخت مرة تانية.. وقف تاكسي، وأخدني على المستشفى، وبعد ما اطمن عليا وصلني لحد البيت.. الحقيقة إنه كان في منتهى الذوق والشهامة.. حتى ملامحه كانت دافية أوي، وفيها سكون

غريب.. عارفة أنا يومها مانمتش طول الليل مش قادرة أتخلص من صورته اللي انطبعت في عقلي"

"اللـــه! وبعدين؟ كملي"

شعرت (سلمى) بنبضات قلبها تتصاعد مع حكاية الفتاة التي لمست مشاعر الحب بأركانها المسلوبة.

ـ "بعد أيام قابلته تاني بالصدفة هنا في النادي.. حضرت بطولة للاسكواش، والمفاجأة إنه كان واحد من اللاعبين.. طبعًا ماكنتش مصدقة إن هو غير لما كلمته.. أول ما شافني ابتسم ابتسامة مش هنساها أبدًا.. ابتسامته نهر يروي ظمأ العطاشى"

ـ "ياااه أنا كدا هموت منك! بالراحة عليا"

شهقت الفتاة ضاحكة بعفوية يعتليها غُصة، ثم واصلت:

ـ "في المرة دي أخدنا أرقام بعض، وبدأ يسأل عليا من وقت للتاني.. وقررنا نكون أصدقاء"

توقفت الفتاة فجأة بعد أن تلحف الهم خيوط وجهها، اختلطت نبرة صوتها بالمرارة، بعد أن لطمت (سلمى) بالصدمة:

ـ "اكتشفنا إن الصداقة مش هي أساس علاقتنا، وإن مشاعرنا تخطت الحب.."

ـ "طيب وفين المشكلة!؟"

ـ "المشكلة إن هو (مصطفى)، وأنا (ماريان).. علاقة محكوم عليها بالموت الأبدي"

ابتلعت (سلمى) ريقها المحتبس بعد أن استقبلت تلك الصفعة التي خرقت حسيس توقعاتها منذ أن علمت بأن حبيبها هو نفسه (مصطفى) لاعب الاسكواش الذي أخبرها عنه (يحيى)، كان لها أن تتفهم مأساة الفتاة، والمعضلة الكبيرة في علاقة حب تجمع بين مسلم ومسيحية، تلك العلاقة التي لم تألف يومًا عقول تعيها أو مشاعر تواسيها أو تعترف بها، في الإسلام الزواج من كتابية أمر مشروع، ولكن في المسيحية الأمر يلاقى بالرفض التام، وإن أقدمت عليه الفتاة المسيحية تحرم من شرائع وطقوس الكنيسة وتنبذ من طائفتها وأهلها، أي يحكم عليها بالموت وهي على قيد الحياة، سألتها (سلمى):

ـ "أهلك عارفين؟"

ـ "عارفين، وهددوني بالطرد من البيت، وبلغوا قس الكنيسة.. ومكالماتهم المتكررة علشان أقابل القس.. لكن أنا مش قادرة.. ومش عارفة أتصرف إزاي"

ـ "مفيش أي أمل إنهم يقبلوا بالزواج؟"

ـ "أبدًا.. أهلي من المتدينين، والأهون في نظرهم إني أموت، ولا أخالف أحكام الكنيسة.. أنا حاولت أبعد وأنسى أكتر من مرة، لكن كل محاولاتي فشلت"

خالج (سلمى) شعور بانشطار قلبها مع دموع الفتاة المتقطعة بشهقات حارة، لم تكن المشكلة بسيطة، فعلى الرغم من اندماج الحياة بين المسيحيين والمسلمين في مصر إلا أن التطرق لفكرة الزواج بين الديانتين لازالت تواجه بالرفض المستمر من الجانبين، ورغم التحذيرات المستمرة من مشايخ المسلمين وقساوسة الكنيسة لمخاطر

الانجراف في علاقات عاطفية مع ديانات مغايرة إلا أن طبيعة الحياة المشتركة بين حاملي الديانتين توقع البعض في تجارب لم يحسبوا حسابها.

انتبهت (سلمى) لرنين هاتفها، فاجأها اسم المتصل، كان (إسماعيل) يخبرها بانتظاره لها على بوابة النادي، فودعت صديقتها وغادرت.

تشتتت أفكارها حول الداعي وراء الاتصال المفاجئ لـ(إسماعيل)، صاحبها إلى أحد الكافيهات بعد أن أخبرها أن هناك أمر هام وراء طلب لقائها، تردد كثيراَ قبل أن يتحدث، وبعد أن اخترق الملل الجلسة، سألها:

ـ "إيه رأيك في (يحيى)؟"

ـ "إيه لزوم السؤال؟"

ـ "(يحيى) طلب إيدك مني، وأنا بعرض عليكي طلبه"

لم تتفاجأ بطلب (يحيى) للزواج؛ فهذا ما لمسته من اللقاءات السابقة، ولكن ما آلمها أن يتولى (إسماعيل) مهمة الوساطة في هذا الأمر، فأرادت أن تثير رأيه:

ـ "إنت إيه رأيك؟"

ـ "أنا!؟..."

ـ "آه انت.. رأيك يهمني"

تسابق العبوس والغضب بين جوفه وكلماته المتوترة، شعر (إسماعيل) بنيران تأكل جسده كلما ذُكر اسم (يحيى)، لم يكن ليجهل

ما حل به في الفترة الأخيرة، تيقن من. مشاعره تجاه تلك الصديقة التي احتلت قلبه بضراوة، لم يدرِ بماذا يجيب سؤالها، ولا يعلم إن كانت تشعر به أو تبادله نفس المشاعر، حاول أن يتهرب من السؤال:

ـ "رأيي مش مهم حتى لو كان (يحيى) أحسن راجل عالأرض مش كفاية إن كنتي مش حاسة بيه"

ابتسمت لرده الذي أثلج صدرها، لطالما كان (إسماعيل) يحمل الوعي الكافي لأفكارها، كما كانت هي تتمتع بالذكاء المناسب، لتفهم تلك الغيرة التي تغمدته منذ اللقاء الأخير مع (يحيى):

ـ "(يحيى) إنسان مثالي، لكن مش هو الراجل اللي بتمناه"

ابتهج (إسماعيل) لإجابتها القاطعة، مما نثر رماد الإفصاح بداخله، حفزته كلماتها ليكون أكثر صراحة:

ـ "(سلمى).. وإذا قلتلك إني بحبك؟"

انفرج ثغرها من وطأة ما حملته لها الصدمة مع لباس من الحمرة كسا وجهها، حاولت التملص من هذا الاعتراف، فنقضت مشاعرها لتتخلص من هذا الضغط الذي أثقل جوارحها:

ـ "كل اللي أعرفه إنها مشاعر غلط"

ـ "بتحبيني؟"

ـ "أرجوك يا (إسماعيل).. ما تضغطش عليا أكتر من كدا.. أنا لازم أمشي"

ـ "استني.. أنا مقدر مشاعرك، وأنا كمان حاسس بنفس الورطة.. لكن الهروب مش حل.. إحنا لازم نواجه الحقيقة"

ـ "حتى لو صارحنا بعض.. إيه اللي هيتغير؟"

ـ "على الأقل هنرتاح من التردد والأسئلة.. أنا عارف إنك بتفكري في (نغم) وأنا كمان"

ـ "(نغم) ما تستاهلش مننا إننا نخدعها"

ـ "أنا متأكد إنها هتعرف من نفسها.. هي مش غبية"

ـ "لأ.. (نغم) مش لازم تعرف.. ولا هنتكلم في الموضوع دا تاني.. أنا مستعدة إني أموت من العذاب، ولا إني أشوف نظرة احتقار منها.. أنا مش هضحي بيها لأي سبب"

التهمها إحساس غامر بالوضاعة لمجرد الانجراف إلى مصيدة الاعتراف، وإن كانت تعترف أمام نفسها بالحقيقة، فليس عليها أن تعلن عنها أبدًا حتى تتجرد نفسها مما يشين، لم تمهل (إسماعيل) ثانية إضافية للرد، كانت خطواتها المُبارحة أسرع من كلماته، تركته لنزاع أفكاره، كانت (سلمى) محقة، ولكنه لم يتقبل تلك الحقيقة، كيف له أن يتعايش مع هذا العذاب كل يوم، ولأي وقت يمكنه الصمود أمام مشاعره!؟ وعلى الرغم من يقينه بحكمة زوجته إلا أنه كان يخشى المواجهة، إنها امرأة كغيرها من النساء تأكلها الغيرة إن نازعتها إحداهن على امتلاك قلب زوجها، حتى إن كانت غريمتها هي نفسها صديقتها الروحية، لطالما آمنت بأن الصديق ما هو إلا بقية منا في جسد آخر.. ولكنها أيضًا كأي أنثى يزعجها أن لا تشغل مساحة

الصدارة بقلب رجلِها، أو تغتنم دور الأولوية باهتماماته، لذا عزم (إسماعيل) أمره على الانتظار، حتى تتفرس (نغم) ما يجري بنفسها.

"تكمن لذة الطموح في سعادة البلوغ..

وعند بلوغ الهدف تُدميك عواقب الشهرة"

اشتباه

-19-

كان عليه الالتفات لما فاته حول جريمة القتل، واللغز الذي لم يُسبر عنه بعد، اغتصبت مشاكله العاطفية فصلًا كبيرًا من وقت العمل، أعاد التفكير فى الحلقة التى لم تتصل بعد، واللغز الباعث على خلق تفسيرات معقولة، شيء يكمن بداخله لم يقنع بالفصل في حقيقة الاعتراف بأن (مازن) هو الجاني، قادته خطواته للعودة إلى مسرح الجريمة لعله يهتدي لما كان يجهله فى المرة الأولى، هذه المرة كان الدافع بطاقتي السفر اللتين أشارت إليهما الخادمة فى المواجهة الأخيرة معها، وعن ما أطلعتها سيدتها عن نيتها للسفر خلال أيام، ما أثار صخب أفكاره.. لمن تعود البطاقة الثانية إن كانت البطاقة الأولى تخص (نجوان)!؟

عاد (إسماعيل) وحده إلى بيت المجني عليها، تجول فى كافة الأرجاء بالمكان، من هذه البقعة لتلك الزاوية، هي نفسها الأشياء والآثار لا جديد فيها، لذا كان عليه أن يبحث برؤية جديدة، وبصيرة أكثر عمقًا، هام بمخيلته لبقاعٍ قد تبدو خفية، إلى مواضع يجدر أن تخبأ بها البطاقتان، وإن كانتا ليستا بتلك القيمة التي تستوجب إخفاءهما عن الأنظار، خلال بحثه اجتذب حلقة الأسرار واحدة تلو الأخرى، فاكتشف ما لم يصل له من سبقوه من رجال الشرطة فى المرة الأولى، وجد خزانة صغيرة تنصهر في تجويف قاع دولاب الملابس، بلغت مهارة صنعها غاية الدقة لخداع أعين السارقين، اتضح له أنها أعدت خصيصًا للاحتفاظ بالمقتنيات الثمينة، لذلك توقع أن يعثر بها على غايته وأكثر، خزانة إلكترونية تحتاج شفرة دخول، كما بدا له من

زرين مجاورين لها، بلغت صعوبة رؤيتهما حد العمى، فبالكاد رآهما من شدة تداخل لونيهما مع ألوان خزانة الملابس، أذهلته المفاجأة حينما فتحت الخزانة الصغيرة ببساطة بعد أول محاولة وبدون الحاجة لكلمة مرور، استنبط السبب.. ربما كان هناك من سبقه وسلب محتويات الخزانة الفارغة دون أن يضع رقمًا جديدًا لإغلاقها ثانية. واصل البحث مجددًا بحماس أكبر، بدا له أن الغرفة تحولت إلى محيط للأسرار ينتظر من يغوص فى أعماقه لانتشالها، تهلل وجهه عندما قبض على اكتشافه الثاني، درج صغير ينسحب من أحد قوائم السرير، هذه المرة كان موصدًا بإحكام، لم يلبث كثيرًا في محاولاته فكسره بعنف مستعينًا بأحد الأدوات الحادة، تلألأت بوارق الفرحة في عينيه عندما وجد ضالته.. البطاقتين.. أمعن النظر في اكتشافاته وانتزعت الدهشة بهجة انتصاره الأول، البطاقتان لم تكونا لنفس البلد، أحدهما كانت للمملكة العربية السعودية، والأخرى لبيروت، وهذا يعني أن (نجوان) ستكون في رحلة مختلفة عن حامل البطاقة الثانية، لم تكن البطاقتان فقط فى حوزة الدرج المكسور، بل وقعت أنظاره أيضًا على جواز سفر، تأمله بدقة لتمتلئ عيناه بصورة لامرأة مسنة تجاوز الخمسين من العمر، الاسم (نادية عبد الحميد وهدان). تيقن (إسماعيل) أن البطاقة الأولى إلى المملكة تخص تلك السيدة، ولكن ما أثار جنونه هو هويتها المجهولة، لا يبدو في اسمها ما يلوح بشيء مألوف، فكان هذا تساؤل جديد ينضم إلى لائحة البحث الطويلة.

لم تتوقف الاكتشافات عند هذا الحد، فما وجده كان هامًا للغاية، بطاقة تهنئة بعيد الميلاد تنطوي داخل ورقة أخرى، فتحها لينفرج جانب هام في اللغز، كانت وثيقة زواج، طرحت كل ما سبق فى زاوية

الاجتناب، واستحوذت على تركيزه كلية بعد أن التقط أسماء الزوجين المدرجين بفحواها. وبعدها قرر التوقف عن جمع مقتنياته الثمينة في جيب سترته قانعًا بما حصده، فعند هذه الورقة الأخيرة لن يحتاج لبرهان آخر لوصل الحلقة المثقوبة، غادر المكان والحسابات تجتاح عقله الماجن بالتفسيرات والدوافع.

****

نثر ما جلبه من أدلة على المكتب منهمكًا في أفكاره العميقة حول القضية، ارتكزت أبصاره على تلك البطاقة الناعمة المدون عليها أرق كلمات الغزل، وتهنئة عيد الميلاد بتوقيع (العاشق مِيم)، لم يلتفت (إسماعيل) كثيرًا لمضمون البطاقة، فكان اعتقاده منصبًا على أنها هي نفسها البطاقة التي أخبره عنها (مازن) بإرفاقها مع تورتة عيد الميلاد، كان هذا مدعاة لتصديق بعض المقتطفات منْ رواية (مازن)، ولكن أين الخاتم الماسي الذي حدثه عنه!؟ هناك دومًا عشرات الاحتمالات، والاحتمال الأكبر أن يكون الخاتم سُرق من الخزانة التي وجدها مفتوحة، إن كانت (نجوان) تحتفظ بمقتنياتها القيمة في تلك البقعة كما رجحت كفة عقله، استجمع (إسماعيل) أفكاره، وبحث في التعليلات الممكنة لفك تشابك تلك العقدة. من تكون تلك المرأة التي عثر على جواز سفرها في شقة (نجوان)، وما علاقتها بالمجني عليها!؟ من سبقه في سرقة مقتنيات نجوان!؟ وما سر وثيقة الزواج التي حصل عليها من مسرح الجريمة!؟

انتُزع (إسماعيل) من شروده مع طرقات مندفعة على الباب، ولج معاونه للداخل ليعلن عن قدوم المتهم (مازن علوان)، دلف (مازن) وقد ازدادت حالته سوءًا مع طول إقامته بالحبس، أجلسه

(إسماعيل)، وطلب له كأسًا من عصير الليمون، أراد أن يبعث عليه بعضًا من الهدوء قبل أن يعيد كرة التحقيق في المعلومات الجديدة التي أثمرها، سبق أن أطلعه (يحيى) على الاتصال الذي ورد إليه بخصوص تورط (مازن) في دهس السارق الذي اقتحم شقة (سلمى)، فأراد (إسماعيل) أن يقطع الشك بسؤال (مازن) عن الحقيقة، فطرح سؤاله بعد حديث ودود أراد منه كسب ثقته:

- "(مازن) انتَ شاب طيب.. مش هخبي عليك.. أنا حاسس إنك مظلوم، لكن الأدلة بتقول غير كدا.. قولي.. انتَ تعرف واحدة اسمها (نادية وهدان)؟"

- "لأ.. أول مرة اسمع الاسم دا"

- "طيب تعرف إيه عن عربية فولفو إس 60 موديل 2014 صدمت شاب في شارع بمصر الجديدة في نفس اليوم اللي اتقتلت فيه (نجوان)؟"

ارتبك (مازن) مع امتقاع ملامحه، كان (مازن) يحمل أحد تلك الوجوه التي لا تتلون أو تبدي عكس ما يقبع في مكامنها، أردف (إسماعيل):

- "فيه ناس شهدت عليك بإنك صدمت الشاب"

كذبة بسيطة من (إسماعيل) لإرباك (مازن)، ودفعه لقول الحقيقة، أفلحت حيلته التي دفعت (مازن) للاعتراف بمسؤوليته عن الحادث، مما زاد من وضعه سوءًا دفعه لليأس بعد تيقنه من حجم الورطة التي لن ينجو منها أبدًا، وعليه معايشة تلك الحقيقة وتقبلها.

"الأصدقاء كالمظلات تغطيك من حدة الاحتراق، وتحجب عنك غزارة الهموم.. بيضاء هي حين تصمد أمام رياح الشدائد الضاربة تطيح بها يميناً ويساراً، ولازالت تقاوم من أجل الوفاء، حتى تتراكم عليها الأحقاد، فتحيلها إلى رمادية تقاوم تارة، وتسقط فريسة لأنانيتها تارة أخرى"

-20-

التقطت قدح القهوة، وارتشفت منه رشفة صغيرة في شرود عميق، ماذا يتسنى لها أن تفعل لتدارك حياة أوشكت على الانفجار؟ العش الهادىء الذي أشبعه العطاء حد الغرق، داهمتها الأفكار الواحدة تلو الأخرى فلا تكاد تطرق خاطرها حتى تطرحها أرضًا من شدة الألم المحتقن بداخلها، وفي زمرة خيالاتها الدفينة عاد (إسماعيل) من عمله منهك البال على غرارها، ارتمى على الأريكة المواجهة لها تطفو على بؤبؤ عينيه شرارة السأم، السأم مما يقابله من غموض عمله، وما يؤرقه من مشاعر حيرة تتقاذفه بين دفتي (سلمى) و(نغم)، راودته الكثير من التساؤلات، كان أقساها كيف يواجه هذا الموقف العصيب تجاه نغم؟ وكيف يحتفظ بزوجته التي يعشقها عشقًا كبيرًا؟ والأكثر ضراوة، كيف تخللت قلبه تلك المشاعر الجارفة تجاه الصديقة؟ مزقه الشتات حتى اقتلع كل جذور السلام النفسي بكيانه، أصبح لا يكاد يرى حياته الهادئه التى حسده عليها الجميع، كانت لديه قناعة تامة بأن الحياة لا تمنح الإنسان كل ما يريد، لذا كان عليه أن يعزم أمره بالاختيار، ربما كان الاختيار هو السبيل الوحيد الذي آل إليه تفكيره طوال الأيام الماضية من بعد استنكار (سلمى) لمشاعره ومشاعرها، علاقة قائمة انسلت بين مشاعر دافئة جمعتهم وعليه تحمل مغبة الاستسلام لنوازعها والتأهب للطمات المواجهة مهما بلغت النتيجة. ظلت نظراته الشاردة مصوبة إلى (نغم) التي آثرت الصمت حتى ينتهي من هذيانه الدفين، كلاهما في حوار صامت مع النفس لدقائق طويلة انفلج بعدها الحديث إلى مسامع (نغم) عندما بادر (إسماعيل):

ـ "فيه موضوع عايز أكلمك فيه.. بس قبل ما أتكلم عايزك تكوني متأكدة من مشاعري ناحيتك، واللي عمرها ما نقصت"

اتسعت حدقتاها فى ذهول مُقنّع، لم تُعقب بأي كلمات كأن اللحظة التي انتظرتها قد حانت لتتيقن مما يغلِي فى داخلها من تكهنات أذن لها أن تنقشع، اعتدلت فى جلستها تأهبا لاستقبال اعترافاته المستترة، ليعلن عنها بصوت مختنق تكسوه الجدية القاطبة:

ـ "أنا عارف (سلمى) تبقى إيه بالنسبة لك.. مش هطلب منك أي شيء أكتر من إنك تعفيني من مقابلتها تحت أي ظرف"

توقف فجأة عن مواصلة الكلام في لحظات تأمل، وانتظاراً لردة الفعل التي سيتلقاها منها، بدت عليها الحيرة بعد أن خاب أملها في الحصول منه على اعتراف صريح، وبنبرة ساكنة تتلحفها الثقة والغصة بادرت هي لافتضاح ما يعجز عن الافصاح بهِ:

ـ "من فترة وأنا ملاحظة تغير حالتك، وشرودك الدائم، وحتى نظراتك ليها.. أنا مش عامية عن أني أشوف المية بتجري من تحتي، وما أحسش بيها"

اختنق صوتها، وتفجرت عيناها بسيل من الدموع حاولت التقاطها بيدها. أما هو أومأ رأسه بنظراتِ خجل ارتكزت إلى الأرض دون أن ينبس بأي حرف، كان صمته وافياَ ليؤكد شكوكها التي واجهته بها، فأردفت بلهجة أكثر حدة:

ـ "دلوقت المطلوب مني أتحمل لوحدي النتيجة.. صح؟.. حضرتك جاي ببساطة تطلب مني أحميك من المواجهة معاها، وإنت عارف إن دا مستحيل.. يعني بتفرض عليا اختيار انتَ نفسك عاجز عنه..

قولي انتَ إيه اللي ممكن أعمله علشان أتجنب إحساس الفقد ومرارته"

تفهم (إسماعيل) انفعالاتها الحادة دون أي محاولة منه لتهدئة ثورتها، بالإضافة إلى أنه لم يقوَ هو الآخر على كبح غضبه، فقاطعها:

- "أنا ماطلبتش منك تختاري.. كل اللي طلبته إنك تبعديني عن علاقتك بصديقتك"

قاطعته بابتسامة ساخرة ونبرة أقل انفعالًا:

- "انتَ بتضحك على نفسك!؟ انتَ عارف كويس إن دا مش ممكن يكون حل.. مش هنقدر نعيش حياة طبيعية وإحنا حاطين حواجز ما بينا"

لم يجد (إسماعيل) بُدًا من جذل تلك المواجهة القاسية، فغادر دون أن يُخطِر بأي رسائل واهية قد يندم عليها فيما بعد، كأنه يلوذ بالفرار من تحرير قرار بلغ من الصعوبة القدر الذي يضعه لأول مرة في لائحة الهاربين من المسؤولية، استقل سيارته وانطلق مسرعًا.

تملك (نغم) شعور خانق بالفقدان مع إحساسٍ جديد بملامة ذاتها على ما يحدث، بلغ التأنيب ضراوته.. فهل كان يتوجب عليها أن تضع خطوطًا حمراء، وتُحرم على الجميع اجتيازها، أم أنها مشيئة القدر بكل الأحوال، وليس لأحد حيلة بها!؟ امتلكت من التعقل ما أجبرها على الاعتراف بوقوع الخطر فعليًا، وأن عليها مجابهته الآن بكل ما أوتيت من رباطة جأش وصبر، مشاعر مختلطة تدفعها لضرورة الاحتفاظ بمن تعجز عن إسقاط أحدهما من حياتها، إنهما هدية القدر لها، لا تفتأ تعترف بتلك الحقيقة رغم مرارتها، وحتى

بعد أن أصبحا لعنة عمرها. هكذا أيقظتها أفكار رمادية لا تميز حقيقة مشاعرها المُحبة والكارهة في آن واحد، كانت ليلة تكسوها القتامة حتى أدركها الصباح بشروق جديد عله قد يُشَّمر عن بارقة بيضاء تطفو من تحت الغطاء الأسود الذى اكتسى به مصيرها.

غالبها النعاس في غرفة الجلوس مع انسدال أستار النهار بعد ليلتها الطويلة، ولكنه لم يمتد طويلًا مع رنين هاتفها، التقطته بسرعة وارتجفت مُرتسمة على ملامحها موجة عارمة من الغضب عندما رأت اسم المتصل، أجابت بصوت جاف خال من أي مشاعر، وبلهجة حادة:

- "انت بتتكلمي منين؟"

على الطرف الآخر من المكالمة، أجابت (سلمى) بتردد:

- "من المكتب.. قلقني غيابك.. انت بخير؟"

صمتت (نغم) لحظات لاستجماع شجاعتها في التصدي لموجة العطف التي تغمدتها بها (سلمى)، ثم تحدثت بحدة:

- "لا ماتقلقيش عليا أنا أقوى مما تتخيلي.. المهم.. لازم أشوفك النهاردة.. في كلام مهم لازم تعرفيه"

- "خير؟"

- "لما أشوفك هتعرفي كل حاجة"

لم تنتظر (سلمى) انتهاء الدوام، ما لبثت أن أخذت حقيبتها، وهرولت إلى منزل (نغم)، كاد القلق يقتلعها من ثباتها، ولن يثمر معها الصبر بأية حال حتى تتبين حقيقة الأمر، وتهدأ من وخزات تلك

الوساوس التي تُنغص حياتها، تأهبت لأي احتمالات، فألفت قوى الضمير بداخلها تدفع أي روايات كاذبة بدرب خواطرها للدفاع عن نفسها، عزمت أمرها على الاعتراف والمواجهة مهما كلفها الأمر، وحينما وصلت إلى المنزل كادت خفقات قلبها تنتفض إلى سطح الهواء من شدة طرقاتها التي تعدت طرقات الباب. استقبلتها (نغم) بوجه فاتر، فسألتها (سلمى) بعفوية:

- "خير يا (نغم) قلقتيني؟"

- "تفتكري هنشوف الخير تاني؟"

- "أنا مش فاهمة حاجة.. تقصدي إيه؟"

- "من إمتى بتحبي (إسماعيل)؟"

هبط سؤالها كالصاعقة على مسامع الفتاة التي احتقنت الدماء بوجهها بصورة مباغتة، اتسعت حدقتيها من فرط الحرج الذي ألم بها، موقف لم تتخيله يومًا بأحداث يومياتها، ولكنه يقع الآن على مرآها ومسامعها، ويزلزل أركانها ببلادة وبلا رحمة، صمتت لحظات من هول الموقف في حين كررت (نغم) سؤالها للمرة الثانية:

- "جاوبيني.. من إمتى بتحبيه؟"

لم تجد مفر، فالإجابة إن لم تكن الآن بالتأكيد ستضطر للإفصاح عنها لاحقًا، استجمعت شجاعتها محاولة الرد، كان صوتها مختنق بالكاد يمكن سماعه:

- "أيوة بحبه من زمان.. إن كانت الإجابة هتريحك"

لم تستطع (نغم) كبح دموعها عندما سمعت كلمات (سلمى) المحتقنة بالبكاء، اختلطت دموعهما صمتًا لدقائق قبل أن تهدأ (نغم)، وتعود لسجيتها المفعمة بالدفء تجاه (سلمى):

- "ما خطرش في بالي أبدًا إن دا ممكن يحصل.. المفروض إني ألومك، لكن دا مش هيغير الحقيقة.. يمكن الغلطة غلطتي من البداية.. أنا اللي قربت المسافات بينكم بدون حذر.. والمفروض إني أتحمل نتيجة غلطتي.. وهتحملها بشجاعة"

- "لأ مش من العدل تتحمليها لوحدك.. أنا كمان غلطت، لكن ما اقدرتش أقاوم مشاعري.. كنت فاكرة إني نجحت أخبيها.. لكن اللي بيحصل دلوقت بيأكد إني فشلت.. ولأني مش هسمح لنفسي أكون سبب في عذابك بعد كل اللي عملتيه علشاني أنا هطلع من حياتكم.. دا أسلم حل"

- "لأ.. مش هقبل بأي قرار غبي"

- "غبي!!"

- "أيوة غبي.. انت فاكرة إني أقدر أعيش من غيرك.. ما تاخديش أي قرار في لحظة تهور ونندم عليه كلنا"

- "إيه الحل في رأيك؟"

- "محتاجة شوية وقت علشان أخد القرار المناسب"

اندهشت (سلمى) من كلام صديقتها المعبأ بغموض وتلميحات غريبة لا تعي كنهها، أي حل يمكن أن تصل إليه (نغم)، وينال رضى الجميع!؟ ما كان منها سوى أن تنتظر لما ستؤول إليه الأمور. تركت

(نغم) لوحشتها، ورحلت وكل منهما تغوص فى أمواج الأسى الضاربة، خالجت (سلمى) فكرة الرحيل، كان همها أن تريح صديقتها من عناء الغيرة، وتتخلص هي من إحساس الخيانة الذي يدب بأوصالها، بالإضافة إلى حاجتها لوأد هذا الشعور العميق بالمسؤولية، والذي يدفعها لمعاقبة نفسها بالرحيل.. ربما كان الرحيل عن حياة من آلمناهم شفاء يقينا من التورط في شق جروح جديدة تتسبب في إيذاء أفئدة من نحب.

اشتباه

"القلبُ أعمى في محبته

والعقل هاوٍ إن حفه الصمم

وفؤادنا مجزوم بالبلايا

وعقولنا يجتاحها النَقَمُ..

إن حُرِرت أفكارها الصنم"

-21-

في مجازفة شديدة الخطورة عزمت (ماريان) أمرها على الفرار بمصاحبة (مصطفى) إلى خارج البلد، حيث يتسنى لهما الزواج بعيدًا عن رفض عائلتيهما، أعدا العدة لتلك الخطوة منذ أيام سالفة حتى واتتهم الفرصة المناسبة، انطلقا بسيارة (مصطفى) قاطعين الدرب من جنوب القاهرة وسط غوغاء الزحام واستبطاء الحركة، طال مكوثهما بنفس المكان لساعات مع تذمر باد على وجوه المنتظرين، لم يع أحد حقيقة ما يجري حتى تراءت لهما جموع كبيرة من الناس تدلف إلى الشارع مع هتافات وإشارات مناهضة للنظام السياسي، وفي تطور بالغ السرعة انجرف التذمر إلى غضب، واحتكاكات بين جموع الثائرين وبين المنتظرين من قادة السيارات الذين بلغ بهم السأم مع تعطلهم عن ممارسة مهامهم التي اضطربت مع عارض لم يحسبوا حسابه، بلغت المشاجرات حد الضرب والتكسير لواجهات السيارات مما دفع (مصطفى) لقيادة (ماريان) إلى كنيسة قريبة للاحتماء بها إلى أن يتوقف هذا الشغب الكبير، استقبلتهم الكنيسة بترحاب مع غيرهم ممن لجؤوا للاختباء بها، وقف (مصطفى) محدقًا أبصاره في متابعة ما يجري من أحداث تطاولت إلى حد العنف، ضرب بالعصي مع إطلاق أعيرة نارية يجهل مصدرها.

جلست (ماريان) على أحد المقاعد يخترقها الهلع من سوء ما جرفها المصير، للمرة الأولى منذ تعلقت بحب (مصطفى) تشعر بمرارة الخطيئة تعصف في بدنها، انتبهت لصوت رقيق يناديها، رفعت بصرها لتضربها صدفة رؤية ابنة خالتها (أيلا)، لم يحتمل عقلها ثقل

تلك الأفكار التي مذقت إحساسها بالزمن لتعي أنها تطأ الكنيسة بيوم صلاة الأحد حيث يعقد القداس، وتجتمع العائلات المسيحية، اتخذت (أيلا) المقعد المجاور من (ماريان) متسائلة بدهشة:

ـ "(ماريان)!.. أمك وأخوكي قالبين عليكي البلد وانت هنا!؟ كنت ناوية على إيه؟"

استطردت (أيلا) مع إشارة بإصبعها ناحية (مصطفى):

ـ "هو دا اللي ناوية تهربي معاه؟ انت اتجننتي!؟"

حافظت (ماريان) على صمتها المُتخم بالأنين، أنصتت بكل جوارحها لحديث (أيلا) عن خطيئتها الكبرى، وعن تحريم الكنيسة للزواج المختلط لقدسية الزواج في المسيحية باعتباره سرا من أسرار الكنيسة السبعة، وعن وجوب اتحاد الزوجين في تبعيتهما للكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وأن مصاهرة المسيحي لغير المسيحي تدفعه للتخلي عن شرائع ديانته، فالزواج في الإيمان المسيحي والعقيدة المسيحية الأرثوذكسية له ضوابطه وقوانينه، ومن أهمها عدم زواج المسيحي بطرف مخالف له في الدين والعقيدة، وعلى الرغم من إجازة التشريع الإسلامي لزواج المسلم من مسيحية، والذي يعني أن يكون زواجها وفقا لأحكام الإسلام، وما يترتب عليه من آثار في العلاقات الزوجية، وصحة نسب الأولاد، وتحكم كل هذه أحكام الشريعة الإسلامية دون إخلال باحتفاظ الزوجة بديانتها، وممارسة طقوس وشعائر عقيدتها، والأولاد ثمرة هذا الزواج يكونون من المسلمين اتباعًا لدين أبيهم المسلم لحين بلوغهم سن الرشد، فيما لو رغبوا في اعتناق دين آخر، ولم تغفل (أيلا) التطرق إلى قانون المواريث المصري الذي يجعل

اختلاف الدين مانعًا من الميراث، ومن ثم فإن الزوجة المسيحية لا ترث زوجها المسلم عند وفاته.

اضطربت عواطف (ماريان) مع استحضار عقلها الذي لم يتفادَ مجابهة تلك الحقائق من قبل، ولكنها لم تدرِ الآن لِمَ تشعر بوخزات الضمير تضرم في محياها!؟ ربما لتلك الأحداث التي بدت لها رسالة واضحة بعث بها الرب إليها ليحجبها عما تنتوي الإقدام عليه، لم تكد تعرب عن قلقها حتى نما إلى أسماعها أصوات صراخ تصدر من خلف أبواب الكنيسة، لمحت اندفاع (مصطفى) إلى الخارج مما أثار عاطفتها لاتباعه دون تفكير، كاد قلبها يَخرع مع مشاهد التدافع والدماء المبعثرة، هرج لا تدري بدايته من نهايته، واتتها صرخة نسائية على يمينها، التفتت ناحية الصوت، كان تجمع مختلط من الرجال والنساء في محاولة من بعض الشباب مفاداة فتاتين من مشاجرة صاخبة، أسفرت عن إصابة أحد الشباب بجرح في ذراعه، في حين جاهرت فتاة بغضبتها مما آلت إليه التصرفات العدائية بين الشبان المتقاتلين على أسباب ليست بالأسباب، لا يعلم المتقاتلون على ماذا يتقاتلون، إنها لفحة من غضب محتقن وغل دفين تداهم الجميع، تعرفت (ماريان) على صاحبة الصوت، دنت ناحيتها للاطمئنان على ما يجري، فكانت (سلمى).. هي أيضا أحد المحتجزين بسياراتهم وسط هذا الزخم، أوشكت (ماريان) على الاقتراب منها إلا أن المشاجرة نشبت من جديد في تدافع همجي بين شابين متقاتلين، لم يكترث أحدهما بأرواح المحيطين، فسل سكينًا كان يِدفنها بين ملابسه في محاولة منه لإيذاء غريمه، كان الاحتكاك جنونيا حتى آل الصراع إلى جسد يغرق بين دمائه وسط صرخات عشوائية.

كانت فاجعة (سلمى) جلية وهي تنظر إلى (ماريان) الممدة أمامها على الأرض في بحر من الدماء. أدرك (مصطفى) نزعة في قلبه عندما تراءى له مشهد لم يجدر على اللحاق به، أو استدعاء الحيلة للعودة بالزمن ثوانٍ معدودة لتغيير المصير، تصلَّب في مكانه مع تصاعد نداءات المستغيثين لطلب النجدة، اقترب من الجسد المفترش على الأرض، جثا على ركبتيه في قراءة بصرية لرسائل وداع تُبادلها (ماريان) بنظراتها إليه قبل أن تلفظ شهقتها الأخيرة. أما رسالته الأخيرة فجادت بها دموعه.

"وكأني ولا حاجة من دونك

وكأن روحي نَفَسها صوتِك

وكأن عمري ونبض قلبي

شبه ميت جوا موتِك"

أما المتشاجران فصنما عن أي فعل سوى تبادل نظرات مكذبة لظلمة الواقع المرير، وكأن للموت هيبة اقشعرت معها الأبدان، وأخرست الواقفين بالوعي لحماقة أفعالهم بعد أن استفاقت العقول. أما (سلمى) فاغتالها شعور حانق على جنون العالم من حولها، انطلقت بهستيرية من الصراخ شعرت بالذنب تجاه الفتاة التي أفقدتها شجاعتها روحها، أي لعنة تلك أصابت العقول عن الإصغاء والبصيرة، لحظة من الغفلة كفيلة بأن تُقترَف فيها عجائب الفظائع عندما ينجرف الإنسان للثأر لنفسه المحتقنة بالغضب، وبعد فوات الأوان يقضي عمره صاحباً للندم.

تفرقت الجموع مع وصول قوات الشرطة التي تحفظت على عشرات الثائرين ممن تورطوا بالحدث الدامي مع شهادةِ جمع من الناس، كان (مصطفى) من ضمن المحتجزين، لم يكن واعياً لأي حقيقة، كأنه شرد في كابوس غطاه الغيم.

وفي غضون ساعة هدأ المشهد وعادت الحياة لجريانها. تحركت (سلمى) بسيارتها على مهلٍ، كانت مسلوبة الإدراك، عصبت الدموع عينيها، فصفت سيارتها بمحاذاة الرصيف، هاجت الأفكار مع عاصفة المشاعر الدامية التي احتدمت بروحها المثقلة في يومٍ محفوف بالألم والقسوة، في الصباح فتحت عينيها على فاجعة انتحار تناولتها قنوات التلفاز، انتحار من!؟ الفتاة التي قابلتها للمرة الأولى والأخيرة في صالة الألعاب الدفاعية.. (هند).. أي بؤس هذا الذي دفع الفتاة للخلاص من حياتها بمشنقة صنعتها بنفسها ولنفسها!؟ وأي كابوس هذا الذي خيم على يومها الكابد ليؤول إلى مأساة جديدة وضحية جديدة ودعتها منذ دقائق!؟... (هند)، ثم (ماريان).. أي مجتمع هذا الذي يذبح أبناءه دون رحمة أو ندم، ثم يتهمهم بالكُفر واليأس!؟ مأساتنا أننا لازلنا نمصمص شفاهنا ونتغامز بنظراتنا المستهجنة على المخطئ، ونرفع العتب عن عقول هذا المجتمع العقيم الذي يورث أبنائه مشاعر التشتت والاغتراب، ثم يتبرأ منهم إن أعلنوا عصيانهم. ساعات عصيبة تقاذفت (سلمى) بين أنيابها الحادة، اقتنصتها نوبة عاصفة من الاحتياج لمن يلملم ضعفها المبعثر، فكرت كثيراً في وحشتها حتى اهتدت أصابعها إلى مهاتفة (إسماعيل)، أخبرها أنه ينتظرها بمكتبه بسبب قضية هامة لن يُسمح له بتركها الآن، فقادت سيارتها مجدداً على حذر آخذة دربها إليه.

ما الثمن؟

عندما لا تُدمعك سوى أوجاعك.. ولا تضنيك سوى رغباتك

تحفك الأنانية وتقتل كل أنفاس الجمال بداخلك لتصبح بلا ثمن

"مفلس الحب أشقى من مفلس المال"

-22-

معارك عصيبة خاضها (إسماعيل)، فقد خلالها الإدراك بكل ما يدور من حوله، لم تعد الأزمات تحت سيطرته كما كانت فى السابق، كانت أقصى مشكلاته تحتاج إلى القليل من الحلول لتندمل ويعود الرونق لحياته ومسكنه الهادئ، أما الآن تبدلت نسائم الفرح بأعاصير عاتية أفقدته توازنه من التمكين، وحان الوقت لتدارك ما خلفه وراءه من فقد بؤرة الاهتمام بالجريمة التي لم تنحلُّ عقدتها بعد.

كانت المواجهة.. حاول (ياسر) خلالها الاحتفاظ بضبط أعصابه، لم يعرف السبب وراء استدعائه غير أنه لم يتوقع أي أسباب أخرى سوى الإدلاء بشهادة جديدة، تركه (إسماعيل) لساعتين على مقعد الانتظار قبل أن يدلف إلى مكتبه، إنها وسيلة ناجحة لتحطيم أعصاب المنتظر وإشعاره بالدونية، قابله (ياسر) بوجه مُقطبٍ مما أثرى بهجة خفية لدى (إسماعيل)، اقتضب (إسماعيل) اللقاء في محور الموضوع، أخرج ورقة منطوية من أحد أدراج مكتبه باسطًا إياها أمام (ياسر)، سأله بجدية:

- "إيه رأيك في الورقة دي؟"

ارتكز (ياسر) ببصره على الورقة في وجوم صاحبته إجابة فاترة:

- "الورقة صحيحة.. أنا و(نجوان) اتجوزنا قبل ما (مازن) يقتلها بأسبوع"

انفرجت أسارير (إسماعيل) مع هذا الاعتراف، مما حفزه لاستخراج بطاقتي السفر اللتين وجدهما بشقة الضحية:

- "تمام أوي.. طيب والتذكرتين دول؟"

- "تذكرة بيروت تخص (نجوان)، أنا اتفقت معاها إني أسبقها على بيروت وهي تحصلني تاني يوم.. لكن مالحقتش قتلها المجرم"

- "والتذكرة التانية؟"

- "ما أعرفش عنها حاجة"

- "احكيلي.. انت عرفت (نجوان) ازاي؟"

- "أنا و(نجوان) نعرف بعض من أيام الجامعة، ولأني كنت فقير جدًا كنا أصدقاء مصالح وبس، ولما خلصت الجامعة كل واحد راح لحاله.. دخلت هي في طريق التمثيل والشهرة.. اتصلت بيها أبارك لها، فساعدتني بعلاقاتها إني اتوظف في شركة سيارات، وهناك اتعرفت على (مازن)، وبدأت صداقتنا، واشتغلت معاه، وحضرتك عارف الباقي"

- "تفتكر ليه (مازن) قتلها؟"

- "لأنها رفضت حبه، واعترفت له إنها بتحب واحد غيره علشان يبعد عنها"

- "انتَ اللي عَرفته عليها؟"

- "لأ.. دي كانت صدفة قابلتها مرة، وهو كان معايا.. عجبته فاتقرب منها، وهو مش عارف إني بحبها.. طبعًا مكنش ينفع أعترف لـ(مازن) بحبي ليها وأنا متجوز أخته"

انتهى (إسماعيل) من مهمته سريعًا لسببين، السبب الأول: رغبته في إضرام مواجهة تجمع (ياسر) و(مازن) داخل مكتبه، والسبب الثاني: (سلمى) التي ينتظر قدومها بترقب.

****

في مواجهة جديدة.. اعترت (مازن) موجة هائلة من الغضب كبحها في نفسه، فهو لم يطلب مقابلة (ياسر) لتفريغ ثائرة بركانه المتقد، إنما أراد أن يرى صورة الشيطان الذي أغواه، وأشبعه طغيانًا على مدار سنوات دون أن يشعر بطعناته الخفية. تساءل (مازن) كيف لمشاعره النبيلة أن تتحول إلى وقود أشعل طاقات الضغينة المحتبسة في نفس صديقه، أخذ يحدق في عينيه بغل، لم يلبث كثيرا في صمته:

- "أنا مش مصدق كل اللي عملته معايا.. مش هفكرك أنا عملت إيه علشانك، لأنه واضح أوي الفرق بين حالك دلوقت، وبين أول مرة قابلتك فيها"

ارتسمت ابتسامة مغلفة بالسخرية على ثغر (ياسر)، قائلًا:

- "لسة ساذج زي ما انتَ.. لو فاكر إنك صاحب فضل عليا تبقى غلطان.. فضلي أنا اللي عليك لولا شطارتي مكنش حد سمع لك اسم في السوق.. كل أفعالك الخيرة اللي بتتباهى بيها قدام الناس وراها استغلال زي ما حاولت تستغلني"

اندهش (مازن) لسماع تلك الأفكار القابعة لزمنٍ في صدر صديقه المزيف، بدت له حقيقة نفسه فهو لم يمثل له أكثر من جسر يعبر منه برقة مغلفة بالأكاذيب، ليصل لأهدافه المتوارية في سماء السطوة

والنفوذ، انجرفت المواجهة لسخونة أكبر، وانفعال مختلط بإحساس الخذلان:

ـ "تخريف.. انتَ عارف كويس إني كان ممكن ألاقي ألف واحد زيك ينجحوني.. لكن أنا اعتبرتك أخ، واتحديت أهلي علشان تتجوز أختي.. وطلعت ما تستاهلش"

ـ "أختك اللي بتعايرني بأصلي الوضيع مع كل خلاف!؟ على كل حال أنا اتجوزت اللي بحبها.. (نجوان).."

لطمه (مازن) بنظرة مُحتقرة، وطدها (ياسر) بإرداف:

ـ "آه (نجوان).. الوحيدة اللي كانت تستاهل الحب.. بس انتَ طلعت مجرم وقتلتها"

ـ "أنا ما قتلتهاش.. انتَ اللي قتلتها علشان تخلص مني.. زي ما بلغت الشرطة عن حادثة العربية.. انتَ جبان وتعمل أي حاجة علشان نفسك.. اللي زيك ما يعرفش يعني إيه حب"

ضحك (ياسر) لإثارة المزيد من غضب (مازن) الذي لم يهتم بسخريته السخيفة، استطرد اكتشافاته عن صديقه المزيف:

ـ "نسيت أقولك إن صفقاتك القذرة اتكشفت.. أبويا هيقفلك الشركة الوهمية اللي فتحتها من ورانا.. مش بس كدا دا هيموتك بالبطيء.. يعني كل اللي سعيت علشانه طار"

انقشعت الأجواء الساخرة مع صدمة (ياسر) بالحقائق التي وصلت إلى صديقه، زالت كل أطماعه بلمحة بصر، لم يتمكن من استيعاب مغبتها المحطمة لكل حلم سعى لأجله، ووضع الخطط لاقتناصه،

اعترف لنفسه بالدناءة، ولكنه لم يكن ليجد سبيلًا آخر لمسايرة واقع المال، والقفز لقطار الكبار وأصحاب السطوة، الواقع الذي يعترف بالطامحين ممن ينفرون من الركود وسط مأدبة الفئران، لذا كان عليه تعلم اصطياد الصقور، لكنه بعد أن اصطادها طمع في ذبحها فأغمدت أنيابها في قلبه.

"ربما لمثل هؤلاء خُلق الحب..

فما أسعد الصادقين"

-23-

تقاذفه القلق بين دفتين، (سلمى) التي طال انتظارها مع هاتفها المشغول منذ دقائق، وغليان شوقه الذي لا يخمد ولا يحرر أفكاره لصواب القرار، أخذ يروح ويغدو بخطواته المرتبكة في الممر مما أثار دهشة المجندين المراقبين لأفعال (إسماعيل) الغريبة، شعر ببعض الراحة تتخلله مع فتح باب مكتبه، خرج (ياسر) ويبدو على ملامحه الخذلان والهزيمة، أدرك (إسماعيل) الرسالة من لقاء أثمر اكتشافات عظيمة، من بينها ما علمه عن الاحتمال الكبير في تورط (ياسر) بقتل (نجوان)، وهذا ما سيبحث في كشفه خلال الأيام المقبلة، نظر إليه في صمت متجاهلًا طرق باب الحديث معه مرة أخرى، استحسن فكرة معرفة النتيجة من جانب (مازن)، دلف إليه فوجده يغمس وجهه بين كفيه في حزن، ربت على كتفه بتشجيع مع نظرات متسائلة، شعر تجاهه بالعطف بعد صدمته الضارية بصديقه الذي أسبغ عليه العطايا والمحبة، وقابلها الآخر بقلب بارد من الجحود والنكران، لم يحصل من (مازن) على معلومات أكثر مما يعرفها، فسمح لـ(مازن) بالمغادرة إلى محبسه، في حين أنه ظل قابعًا داخل نيران الانتظار حتى تأتي من سلبت عقله.

وصلت (سلمى) إلى مدخل القسم، وعلى مسامعها مكالمة هاتفية يتخللها صوت (نغم) من بعد المقاطع المباشرة التي بثتها قنوات التلفاز عن الحادث المروع، والذي أطلت صورة (سلمى) عبر مشاهده المُذاعة، الأمر الذي خلع قلب (نغم)، ودفعها للاتصال بصديقتها للاطمئنان عليها، فكانت سعادة (سلمى) غامرة بتلك المكالمة التي ضمدت جروحها، وشدّت من أزرها بعد قبضة وحدة صرعت مدامعها في هذا الموقف العنيف الذي لاقته للمرة الثانية

خلال شهرين، كأن القدر يعاقبها على عواطفها التي لا شأن لها بجريانها في أوردتها، هي لم تختَرّ حياتها ولم تمنحها الأقدار فرصة تقرير المصير في كثير من الأحيان، لطالما ألقت بسهام اللوم على من تركوها وخذلوها بوحدتها. أمها التي تركت الحياة، وتركتها دون أن تجلب لها أخوة تستند إليهم بتلك المصاعب، وأبوها الذي خذلها، وغادرها منذ نعومة أظافرها، وصداقاتها التي لم تكلل بالصدق إلا مع (نغم)، وها هي كادت أن تضيعها مع خُطة الرحيل التي أعدتها لولا الحادث الذي دفعها للبحث عنها مجدداً، اختلطت مشاعرها بالشُكر تارة، وباللوم تارة أخرى حتى أنهت المكالمة على وعد بإضافة صفحات جديدة لم تُخط سطورها الأولى بعد في رحلة صداقتهما، عبِرت طريقها إلى مكتب إسماعيل والشرود يسلب خواطرها، اصطدمت بِشخص في طريقها، بدا عليه التيه على غرارها، التفت إليها معتذراً فقبلت اعتذاره برقة، ثقبها ببصره في تبجح والدهشة تكمم حواسه، التقط الحروف من جوفه بصعوبة، حتى تفوه أخيراَ:

- "نجوان!!"

نظرت إليه (سلمى) مستنكرة:

- "حضرتك غلطان.. مش أنا اللي تقصدها"

- "انت نجوان"

- "يا أستاذ قلتلك ما عرفش مين اللي بتتكلم عنها.. يمكن انتَ غلطان"

- "مش ممكن أكون غلطان.. فيه شبه كده!؟"

- "يخلق من الشبه أربعين"

أتمت عبارتها الأخيرة، وأشاحت بوجهها عنه لمواصلة طريقها إلى مكتب (إسماعيل)، غير مُكترثة بهلاوسه الغريبة، تبعها (ياسر) من بعيد ليعرف وجهتها، ثم غادر للخارج وعقله يعترك بالدهشة عن سر هذا التشابه، أم أن (نجوان) لم تمت من الأساس، وأنها لعبة اختلقها (إسماعيل) لخداعه.

دلفت (سلمى) إلى المكتب، حيث وقف (إسماعيل) في استقبالها، تسمرت بمكانها وعيناها تتلألآن ببريق الدموع، كانت في أحوج حالات الاحتياج، وبالرغم من ذلك لم تومئ بأي حركة، اقترب (إسماعيل) منها باسطًا يده بالتحية، تطلعت إلى كفه المنبسطة دون أن تبادلها التحية، ولم تمر لحظات حتى ألقت برأسها على صدره في نوبة صاخبة من البكاء، أحاطها بذراعيه رابتًا على ظهرها بحنان متخللة أصابعه بين خصلات شعرها المُتهدل بطلاقة كنشيجها المسترسل بعفوية على صدره، احتوى (إسماعيل) أوجاعها حتى هدأت، واستفاقت من نوبتها العتية، فتحررت من بين ذراعيه بخجل، ثم تحركت إلى المقعد المقابل لمكتبه، مرتخية بجلستها بين أركان المقعد، كان (إسماعيل) يراقب تصرفاتها باهتمام، لم يحاول فهم ما يجري، وهذا ما كان دومًا يستحوذ على إعجابها، لطالما كانت تحب فيه تلك الصفات من احتواء المشاعر ومهاودة تقلبات النساء بصبر، عاد للجلوس على مقعده خلف المكتب، أراد أن يكسر ذلك الصمت المخيم على المكان فأبدى الغبطة لرفقتها:

- "تعرفي إني مبسوط أوي لأني أول حد فكرتي فيه.. ومش لازم يكون حد تاني في مكاني"

لتوها عرفت ماذا تعني ضمة الكلمات.. تلك الحالة من الدفء التي تنساب بعفوية بين كسرات من الثلج لتُصهرها حد الغرق، ترددت بالتفوه حتى انطلقت الكلمات من ثغرها بمشقة:

- "أنا جيت لك علشان محتاجالك، وبعترف إن ما ينفعش يكون في حياتي حد ألجأله غيرك و(نغم).. والغريب إني كنت ناوية أهرب.."

- "تهربي!؟ مكنتش هسمحلك تطلعي من حياتنا بعد ما بقيتي جزء منها"

- "أصعب يوم في عمري، حاسة إني في كابوس لسة ما طلعتش منه.. أنا جيت على هنا زي المسحورة"

- "المهم إنك بخير.. وإننا لسة مع بعض"

آثرت الهروب من استرساله بعواطف لازالت تنكرها بين ذاتها البريئة على الرغم من تعطشها لسماعها ومبادلتها، غارت في أفكارها حتى استدعت موقف كاد أن يضمحل في غيابات ذاكرتها:

- "قبل ما أدخل هنا قابلني شاب.. ومقتنع تمامًا إني واحدة يعرفها اسمهاا.. (نجوان)"

داهمت عاصفة من الماضي ذاكرة (إسماعيل)، حتى كادت تخترق نظراته الثاقبة وجه (سلمى)، هو أيضًا كان يعتصره التساؤل عن ذلك الوجه الذي لقت صاحبته حتفها، كان موقنًا بأنه يألفه، والآن اهتدى إليه، إنها فعلًا تشبه سلمى، اضطرب عقله حتى أنه لم يتمهل ليخمد نيران أسئلته، قام من مقامه مشيرًا لـ(سلمى) بالذهاب:

- "يلا بينا، فيه حاجة مهمة لازم أوصلّها"

ـ "مش فاهمة"

ـ "بعدين هتفهمي"

رن هاتفه، فأجاب مسرعًا عندما لمح اسم زوجته، لم تطل المكالمة معها، فقط انتهت على وعد قطعه لها، ثم أغلق الهاتف، وسأل (سلمى):

ـ "(نغم) تعرف إنك عندي؟"

ـ "لأ.. أنا قلتلها إني بخير، وطالعة على شقتي"

ـ "طيب هي طلبت مني أخدك لعندها.. وأنا وعدتها"

اندهشت (سلمى) من رغبة صديقتها، كيف تطلب من (إسماعيل) اصطحابها إليها بالرغم من كل ما جرى بينهم!؟ إلى هذا الحد تنعم (نغم) بكل هذا العطف والتجرد الإنساني!؟ صديقتها التي تقطنها مشاعر ندر جريانها على هذه الأرض المقفرة والمعبأة بسواد القلوب، لازالت تتمتع بهذا القدر من الحنان، وإيثار سعادة من تحب على سعادتها، وإن كانت سعادتها لا تتجزأ عن سعادتهم، إنها امرأة تجود بالإنسانية على آلاف القلوب المهترئة المزعمة. من أجل هذا يكون الحب شعلة لحياة من يجذلون في العطاء.. من يَصدقون بنياتهم ويملؤون مداراتهم بالدفء والرضا.. هؤلاء ميراث الأرض الطيبة.. أبناء السليقة السمحة، وأنهار الكرم التي لا تجف أبدًا.. وربما لمثل هؤلاء خُلق الحب.

"مَن أقسى من فقير العاطفة عندما يُعذّب من حوله بنوازع الحقد والكراهية والرغبة في الانتقام!؟"

-24-

لازال يُقلب جواز السفر المجهول بين يديه، منخرطًا فى حيرته وتساؤلاته، كان في طريقه للعودة إلى الماضي، إلى ما قبل أن تلتحف (نجوان) بثوب الشهرة، ما آلت إليه النتائج دفعته لبعث ما اختبأ تحت الثرى، من ساعد الفتاة للتطلع والانغماس بمواكب النجوم؟ أين كانت قبل ارتياد هذا الطريق؟ لم يعثر على بداية الخيط إلا عند العتبة الأولى بطريق شركة الإنتاج التي تعاقدت معها الضحية قبل سبع سنين، التقى بالمالك والذي وصل إلى مسامعه أنه مكتشف موهبة الفتاة، ومن فتح لها الباب إلى هذا العالم الجديد، أجرى حديثًا مطولًا مع الرجل، أثرى فيه مسامعه برواية مسهبة عن الفتاة التى شغفت بعالم الفن منذ نعومة أظافرها على حد قولها، وطرقت الباب تلو الآخر حتى اهتدت إليه، ليضمها إلى صفوف المتطلعين للأضواء، حدثه الرجل عن البيئة البسيطة التى نشأت فيها الفتاة، وعن خطواتها الحذرة منذ اعتلائها صدارة المجلات، كانت علاقاتها العاطفية نادرة وحاول الجميع التقرب منها، إلا أنها ما كانت تجد منفذًا إلا وأغلقته فى وجوه المتلصصين والمقتحمين لسريرة حياتها المنغلقة، حتى تبدلت طبيعتها منذ التقت بهذا الشاب الثري، بددت كل الأسلاك الشائكة للحذر، وألقت ثقتها بين براثن حبه لدرجة أحالتها إلى لعبة يتقاذفها بين يديه، وفي الوقت الذي حاول فيه الرجل أن يوقظ حذرها لعدم الانجراف وراء مشاعرها المسلوبة أخبرته بزواجها منه، وتوسلته ألا يخبر أحدًا بذلك حتى تمنحه الضوء الأخضر، وانصاع الرجل لرغبتها طالما لن يؤثر ذلك على مجريات عملها والعقود التى وثقتها مع الشركة، على الرغم من محاولتها

الأخيرة للتملص من رحلة فنية إلى بيروت كان من المفترض أن تبدأها بعد أيام من الحادث لكنها بالنهاية وافقت. هنا تيقن (إسماعيل) من صدق رواية (ياسر)، فلم يعقب (إسماعيل) كثيرا على ما سمعه من الرجل، كل ما أهمه التدقيق في ما وراء التفاصيل، لم يبد التساؤل عن هوية الشاب الذي أغرمت به، فمن المؤكد أن الرجل قصد (ياسر) بالحديث. كانت ملامح (ياسر) ودهاؤه كفيلتان بإيقاع الفتيات بين براثن عشقه، ولكن ما نبش خطوب الحيرة بعقل (إسماعيل) هو المكان الذي وردت منه الفتاة قبل مسيرتها في الفن، حاول أن يستدل من الرجل على عنوان سكنها القديم، فلم يجد إجابة دقيقة تخمد ثورة الفضول في نفسه، لم يكن الرجل ملما بقدر واف من المعلومات عنها، أكثر من كونها من عائلة متواضعة تقطن في أحد حارات شبرا، فمن يهتم بمعرفة تفاصيل الماضي التي دفنت تحت بريق الحاضر!؟ اكتفى المحقق الشغوف بما حصل عليه من معلومات، وقبل رحيله عرض على الرجل صورة المرأة في جواز السفر ربما استدل على هويتها، ولكن الرجل على غرار من سبقوه لم يتعرف عليها، بارح (إسماعيل) المكان، وبرأسه عبارة: - "ولا زال البحث مستمرا!"

لم يتخاذل (إسماعيل) عن غايته في كشف الحقيقة، كان عليه أن يستعيد عزمه لمواكبة مهامه المؤجلة، وعلى الرغم من الدلائل التي تقيد (مازن) في براثنها، إلا أن إحساس (إسماعيل) جرفه لحقيقة أخرى غير تلك، اتخذ سبيله إلى منطقة المدابغ بمصر القديمة لاكتشاف بداية اللغز لدى الخادمة (فاطمة)، لعلها تعلم أين تقطن عائلة (نجوان)، لم يرسل لها استدعاء كالمرات السابقة إنما خاض الأمواج بذاته. بطرقات قوية متتابعة على باب منزلها الذي لم تنبض

خلاله أنفاس لإنسان توقف بعد أن تناولته خيبة أن لا يجيب أحد، وقبل أن يهم بالمغادرة استوقفه أحد المارة:

ـ "بتسأل على مين يا أستاذ؟"

ـ "(فاطمة بكري)"

ـ "اتجوزت من كام يوم.. مفيش حد عايش هنا غير أمها.. تلاقيها في شغلها"

شكر (إسماعيل) الرجل، وعاد يستأنف الطَرق بلا استجابة، ثم غادر في وجوم بخطوات متثاقلة، بدأ يتفكر في خطوته الجديدة، ولكن طاحت أفكاره مع ضجة انفجار يقع على مسافة وشيكة جدًا منه، تلاحق الناس صوب الصوت الذى زلزل المكان، أذهلته مفاجأة انتزعت الروح من قدميه لتلبث بلا حراك عندما حاصرت عيناه مشهد الحريق الملتهب فى المنزل الذى غادره توا، وعلى صياح وتدافع من حوله استعاد انتباهه الغائب ليشارك فى اجتياز الواقعة الأليمة، بعد محاولات اجتهادية من الناس لإطفاء الحريق استطاعوا العثور على المرأة التي ظنوا أنها لم تكن بالداخل، إلا أن الانفجار وقع بعد أن فتحت الباب وخرجت للبحث عن الطارق، كانت إصابتها خطيرة عندما نقلتها عربة الإسعاف إلى المشفى. يتبعها (إسماعيل) ليطمئن على حالتها.

رصدت عيناه الكثير من الناس يجيئون ويذهبون من وإلى المشفى الذي ترقد فيه تلك المرأة، التى نبضت روحها بعد انتشالها من الحريق، لترقد على أحد أسرة العناية المركزة، لبث في سيارته لساعات بانتظار الخادمة الغامضة التي لم يلمح لها أثرا منذ وقوع الحادث، كانت دهشته يغلفها الارتياب كيف تتأخر الفتاة عن رؤية والدتها

المشرفة على الموت، غلبته سنة من النعاس كاد يرديه بين خمائله، لولا نشوب مشاجرة على مدخل المشفى زادت من عجبه عندما رأى (فاطمة) التى قدمت أخيراً بصحبة رجل في ضخامة المصارعين، يقف بجوارها محاولًا معها إثناء سيدة مسنة عن المرور إلى داخل المشفى، ما جذب انتباهه إصرارهما الشديد على رحيل المرأة التي استسملت لتطاولهما بالتنكيل والصراخ، مما هيأ لـ(إسماعيل) تعقبها لكشف حقيقة هذا المشهد المثير، شعور بالغبطة انتاب روحه حينما أنهى مطاردته إلى هذا المكان الذي ورد ذكره فى القضية على لسان المنتج الفني، نفس الحي (شبرا) الذي كانت تقطنه الضحية (نجوان) قبل أن تنتقل إلى سكن جديد يتلاءم مع عالمها الجديد في الشهرة، ترجل سريعًا من سيارته لارتقاء سلم المنزل خلف المرأة التى ذرفت عيناها بالدموع طوال رحلتها إلى هنا.

أسفرت ملامح المرأة عن طيبة لم تعد تنعكس إلا على وجوه خاض فيها الزمن معاركه الضاربة، حتى عبث بصاحبة الوجه الهادئ النحيف، غمرها القلق فى اللحظات الأولى من استضافته في شقتها المتواضعة بعد أن كشف عن هويته كمحقق شرطة، لكنها سرعان ما اطمأنت لحواره الودود معها:

- "أنا مش عارف أبتدي منين.. أو يمكن هبتدي من الوقت اللي عرفتك فيه، وجيت وراكي من المستشفى لغاية هنا.. (فاطمة بكري) اللي منعتك من الدخول.. والراجل اللي معاها.. وحكاية ياريت أفهمها منك"

تنهدت المرأة بعمق، برقت عيناها وزاغت روحها للحظات كمن سافر مع نسمات الحنين إلى عالم آخر لن يعود، بدأت تقص عليه القصص:

- "يااه.. دي حكاية بقالها سنين.. لكن تهمك في إيه (فاطمة)؟"

- "(فاطمة) ما تهمنيش بشخصها.. اللي تهمني (نجوان) الممثلة.. اللي كانت بتخدمها (فاطمة).. انت طبعًا تعرفي (نجوان)؟"

ارتبكت المرأة مع سؤاله الأخير، مما أثار دهشة لم يعلن عنها، ما الداعي لارتباكها!؟ خاصة وأنه بعد موت (نجوان) لن يؤذيها الكشف عن حقيقة فقر عائلتها وتواضع معيشتهم. أنصت بانتباه لإجابة المرأة:

- "(نجوان) بنتي اللي ماخلفتهاش.. عاشت معايا لحد ما اختارت الطريق اللي فرق بينا"

- "تقصدي إنها مش بنتك من صلبك؟"

- "لأ مش بنتي"

كاد أن يسألها عن أصول الفتاة لولا أنها سبقته مردفة:

- "(نجوان) تبقى بنت أختي.. وأختي هي الست اللي راقدة في المستشفى بين الحيا والموت.. وزي ما شفت ما عرفتش أدخل اطمن عليها"

- "تقصدي إن (نجوان) تبقى أخت (فاطمة) الخدامة؟"

- "لأ.. (فاطمة) مش بنت (نادية) أختي"

- "(نادية)! (نادية وهدان)؟"

- "أيوة"

- "يعني جواز السفر اللي لقيته في شقة (نجوان) يبقى لأمها!"

- "(نجوان) كانت وعدتها تطلعها عمرة.. ووفت بوعدها.. ربنا يحرق قلب اللي قتلها"

- "انتِ تعرفي القاتل؟"

- "ياريت كنت أعرفه كانت ناري بردت"

- "وتطلع مين (فاطمة)؟ وإيه علاقتها بأم (نجوان)؟"

- "(فاطمة) بنت جوز أختي.. كان راجل غلبان اتجوز (نادية) بعد موت مراته.. (فاطمة) كان عمرها سنة لما اتجوز (نادية)، واتربت البنت مع أختي لحد ما كبرت.. ولما (نجوان) اتنقلت لسكنها الجديد طلبت منها أمها إن (فاطمة) تفضل معاها علشان تبقى مطمنة على أخبارها، وتكون أولى من الغريب في خدمتها.. لكن كانت غلطة كبيرة.."

- "ليه؟"

- "(فاطمة) طول عمرها بتكره (نجوان) وبتحقد عليها.. و(نجوان) حكت لي إنها كانت بتسرق لبسها وفلوسها.. والبنت كانت بتسكت علشان خاطر (فاطمة) يتيمة، وأمها موصياها تعطف عليها"

شعر (إسماعيل) بدنوه من إسبار الغطاء عن هوية القاتل، كلام المرأة عن (فاطمة) الخادمة يعني أنها تعلم تفاصيل حياة (نجوان)،

وليست بالسذاجة التي تعميها عن تفاصيل حياة (نجوان) كما ذكرت في التحقيق، أما عن سرقاتها للضحية فتؤكد له أنها من سبقته في فتح الخزانة التي وجدها فارغة في منزل (نجوان)، نما إلى عقله تساؤل جديد:

- "لكن أنا مش فاهم إيه اللي يخلي أم تسيب تربية بنتها لأختها، وتربي بنت مش بنتها؟"

- "هرجع من البداية خالص.. من حوالي 30 سنة نادية وقعت في حب شاب.. ولأنها كانت لسة صغيرة صدقته، وهربت معاه رغم أن والدي الله يرحمه كان شديد جدًا معانا.. لكن يمكن دا اللي دفعها تهرب من البيت.. طبعًا والدي أقسم أنه هيقتلها لو عرف مكانها لحد ما مات بعدها بسنة.. وأنا كنت اتجوزت، واتفاجئت في يوم بـ(نادية) جاية لبيتي، ومعاها مولودة طبعًا كانت (نجوان).. حكت لي عن الشاب اللي هرب وسابها، وعن العذاب اللي شافته لحد ما ولدت.. اترجتني إني أربي بنتها بسبب ظروفها المادية، وبعد ما أمي غضبت عليها، ورفضت تسامحها على عملتها"

- "آه.. كدا فهمت"

تفهم (إسماعيل) مجريات الأحداث المثيرة لقصة (نجوان)، لكنه لم يعلم بعد السبب وراء منع (فاطمة) للمرأة من زيارة أختها، فسألها:

- "ليه (فاطمة) منعتك من زيارة أختك؟"

- "كانت بتساومني.. إنها مش هتسمح لي أشوفها إلا لو دلتها عالصندوق"

- "صندوق إيه!؟"

- "صندوق المجوهرات بتاع (نجوان).. (فاطمة) سرقته وخبته تحت الأرض في بيت أختي.. و(نادية) اكتشفته بالصدفة، وجابته لعندي علشان أخبيه.. ولّمحت إنها بتشك إن (فاطمة) لها يد في قتل (نجوان).. بعد ما (نجوان) بلغت أمها إنها خلاص مبقتش قادرة تستحمل تصرفاتها القذرة معاها، وإنها مستغنية عن خدماتها"

- "انت كدا بتأكدي إن (فاطمة) هي القاتل.. طيب ممكن أشوف الصندوق؟"

- "ثواني أجيبه"

اختفت المرأة لدقائق، ثم عادت تحمل صندوقًا صغيراً من المعدن، فتحته ووضعته بين يدي (إسماعيل)، عبث بأصابعه في مقتنيات الصندوق الثمينة، كان عقل (إسماعيل) منهمكًا بالبحث عن شيء واحد.. الخاتم الماسي الذي ذكره (مازن)، ولم يعثر عليه لإثبات صدق روايته، وأخيراً وجده (إسماعيل) بين الجواهر، مما أبهج أساريره وحل عقدة القضية الشائكة، كاد (إسماعيل) أن يغلق الصندوق لولا أن جذبت أبصاره صورة ملتصقة بالغطاء من الداخل لطفلتين رضيعتين، سأل المرأة عن الصورة:

- "صورة مين؟"

خطوب من الأسى اعتلت ملامح المرأة، أسدلت عن سرها:

- "دي حكاية تانية محتاجة مساعدتك فيها"

"لملم وعود الحب وانثرها فناء

فالوعد لا يعرف فرارًا واختباء

والصمت أقوى في مودته

من بحر كلمات لا يهدي ارتواء

خير لك في الحب أن تذكر حبيبًا

ملئت فصول لقائه بالكبرياء

لا لوم يطرق بابه ولا ندم

ولا يعكر صفوه صخب النداء"

-25-

(أكتوبر 1984م)

- "انتِ عرفتي طريقي ازاي؟"

- "المهم إني لاقيتك.. والمرة دي مش هتهرب مني زي ما عملت قبل كدا"

- "انتِ عايزة إيه دلوقت؟"

- "عايزة أقابل مراتك، وأعرفها حقيقتك الفاسدة"

- "اسمعي.. إن مامشتيش من هنا مش هرحمك"

- "لا أنا ما بقتش أخاف من الكلام دا.. ما عنديش حاجة أخسرها أكتر من اللي خسرتها.. مش همشي قبل ما توعدني إنك هتقابلني بكرة على بوابة النهضة لجنينة الحيوانات الساعة 4.. فيه حسابات لازم نسويها وإن ما جتش هفضحك"

- "حاضر.. حاضر.. امشي بأة دلوقت"

أغلق الباب بسرعة، التفت بهلع حتى اصطدمت أبصاره بهيئة امرأة تقف بنهاية الردهة، كانت زوجته أغواها الفضول لتعلم هوية الطارق بعد أن لبث زوجها طويلًا عند الباب، تصبب (أحمد) عرقًا محاولًا مواراة ارتباكه معللًا تصرفاته:

- "دي واحدة شحاتة بس تبتة أوي.. مش عايزة تمشي إلا لما تاخد حاجة لله.. بس الحمد لله أهي غارت"

ثقبته الزوجة بنظرات حائرة، نشبت في مسامعها بعض كلماته الأخيرة مع مُحدثته وراء الباب، مما دفعها لتكذيبه في نفسها، أما أمامه أبدت قناَعتها بروايته، تصرفت بحكمة ودهاء يتفقان مع عمرها الذي جاوز عمر (أحمد) بعشر سنوات، كان ديدنها معه الصبر فآثرت الحفاظ على سلوكها معه بصورة طبيعية حتى اليوم التالي، وفي الساعة التي أنصتت لها جيدًا على لسان المرأة، تأهبت للخروج بعد مغادرة زوجها، ذهبت لنفس المكان المحدد لترى زوجها برفقة امرأة تكاد تكون جميلة بملامحها وإن قبح هندامها وهيئتها الرثة، كانت المرأة تحمل رضيعًا بين ذراعيها، ظلت الزوجة ترقب المشهد من بعيد حتى لا يلمحها (أحمد)، لم يطل وقوفهما عند المدخل فولجا إلى الحديقة متواريين بين زحامها وأشجارها الكثيفة، انتظرت في مكانها لساعة حتى لمحت المرأة تخرج وحدها من نفس المدخل، تبعتها الزوجة حتى واتتها الفرصة المناسبة، واستوقفتها بشغف متسائلة:

- "إنتي تعرفي (أحمد) منين؟"

تلفتت (نادية) بأبصارها تتجول حولها لتتأكد من خلو المارة من (أحمد) الذي جمعت معلوماتها الكاملة عنه طيلة الشهور السابقة وتعرفت على زوجته بيسر. تحدثت نادية:

- "أنا هحكيلك على كل حاجة"

سردت على الزوجة كافة تفاصيل علاقتها المحرمة مع زوجها قبل أن ينعم في أموال زوجته الثرية، والتي لا يجرؤ على التخلي عنها أو إثارة غضبها، وإلا تركته يلهث كالكلب بالطرقات، أشفقت الزوجة على

حال (نادية)، كانت تعلم عن زوجها من الأفعال المشينة ما يدفعها لتصديق روايتها، سألتها المرأة:

- "يعني البنت اللي معاكي دي تبقى بنت (أحمد)؟"

- "أيوة بنته.. وأنا ما أملكش حاجة علشان أربيها.. كل اللي طلبته منه إنه ياخدها يصرف عليها ويربيها في بيئة نضيفة.. لكنه ندل كعادته رفض حتى يعترف بيها"

كان شوق المرأة لاجتلاب فطرة الأمومة دافعًا لها للعطف على الرضيعة الراقدة بملائكية بين ذراعي أمها خاصة بعد حرمانها من نعمة الإنجاب، ترددت قبل أن تتجرأ في الإعلان عن نيتها:

- "اسمعي.. إذا انت فعلًا متنازلة عن البنت، وإنها فعلًا بنت (أحمد) أنا هاخدها أربيها"

- "انت بتتكلمي جد!؟"

اغرورقت عينا (نادية) بدموع السعادة، لم تصدق مسامعها، لكن الخوف انسل فجأة إلى قلبها، خشت أن تكون المرأة تخدعها لأخذ الفتاة بنية إيذائها، فأعربت في توجس عن رفضها لعرض المرأة:

- "لا يا ست مش هتاخديها"

- "ليه بس؟ والله العظيم هحافظ عليها زي بنتي.. أوعدك.. مش يمكن ربنا حطني في طريق (أحمد) علشان خاطر البنت دي.. أنا محتاجالها زي ما هي محتاجالي"

شعرت (نادية) بقلة حيلة تدب في جوارحها، كان عليها أن تقبل بعد أن حسبت المقادير في رأسها، أي مصير أسوأ ستلاقيه ابنتها من أن

تنشأ وسط بيئة وضيعة مع فتيات الليل اللاتي انضمت إليهن بعد أن هجرها حبيبها لمصيرها الأسود، كانت تتنكر بهيئة شحاذة خلال النهار حتى تحتفظ بمحل سكنها، ويقبلها السكان بينهم رأفة بها وعندما يجن الليل ترتدي قناع فتاة الليل لكسب قوتها، حاولت المرأة أن تثبت صدق نيتها، فبادرتها بطلب متهور:

ـ "أنا هثبتلك صدق كلامي.. تعالي معايا البيت، وهواجهك بـ(أحمد)"

ـ "لأ.. أنا هصدقك.. خدي البنت أنا متأكدة إنك هتربيها أحسن مني.. بس هتقولي إيه لـ(أحمد)؟"

التقطت المرأة الطفلة بحنان، وهي تطمئن (نادية):

ـ "ما تخافيش أنا هقوله إني جبتها من دار أيتام.. أنا كنت ناوية أعمل كدا فعلًا لولا إنك ظهرتي في حياتنا.. وبنته أولى من الغريب"

ـ "باين عليكي طيبة أوي، وإلا مكنش قدر يلعب عليكي، ويتجوزك"

ـ "معلش.. كل كذبة ولها آخر"

ودعت (نادية) طفلتها بدموع مقهورة وقلب مذبوحٍ، كانت تشعر بانتزاع روحها مع رحيل المرأة لم تكن تمتلك حلًا آخر للحفاظ على طفلتها، وضمان خطوات صائبة لمستقبلها، بعد أن أودعت طفلتها الثانية في أمانة أختها.

أما (أحمد) فكان يخضع بإذلال لرغبات زوجته التي فاجأته بالطفلة، وكانت على عهدها مع (نادية)، حتى مرت السنين وارتسمت ملامح الأب على وجه الصغيرة، فاعترفت (نادية) لزوجها بالحقيقة التي لم يكترث لها يومًا، بل لم يهتم في زواجه بأكثر من المال الذي منعته عنه

زوجته بعد انغماسه بحياة السُكْر والعربدة، مما اضطره للرحيل عنها للأبد.

"في رحلتك للبحث عن الحقيقة تتعثر بالأشياء التي لم تقفز إلى أفكارك قط لتقودك إلى عالم أكثر ثراء، وأهداف أكثر عمقًا، وحياة أكثر اتساعًا"

-26-

توأم لفتاتين أنجبتهم (نادية) من علاقة غير شرعية، أحدهما (نجوان) الضحية المقتولة، والأخرى من؟ سؤال انتزع خيوط السكينة من بدنه حتى أوجس أنفاسه المرتجفة من قسوة الإجابة، ثقل رأسه بتخمة تلك المفاجآت التي لم يتسع لها عقله، دارت الدنيا من حوله، إلا أنه لم ينهزم لوطأة الصدمة، كان عليه مجابهة الحقيقة التي راودته بوسواس الخوف ليقطع نوازع الشك من قلبه، سأل المرأة بتردد:

- "مين هي توأم (نجوان)؟"

- "عمري ما قابلتها، لكن أمها فضلت تدور على مكانها سنين لحد ما عرفت المكان اللي اتنقلت ليه مع أمها الجديدة"

- "يعني تعرفي عنوانها؟"

- "لأ.. كل اللي أعرفه من (نادية).. إن اسمها (سلمى).. وإنها عايشة لوحدها بعد موت أمها الغنية"

ابتلع (إسماعيل) ريقه متسمراً في مكانه بصمت جائر، أي حقيقة تلك التي استهجنها خياله، الفتاة التي يحبها تمتلك حياة غير الحياة، وأما غير الأم وجذوراً غير الجذور، انتبه لصوت المرأة الذي بدا خافتاً جدًا كأنه آتٍ من مكان بعيد:

- "يا بني انتَ بخير؟"

- "إيه! آه بخير"

ـ "يعني هتساعدني؟"

ـ "أساعدك في إيه يا حاجة؟"

ـ "تلاقي (سلمى)"

ـ "آه أكيد هساعدك تلاقيها.. لكن دلوقت لازم تيجي معايا علشان تشهدي في القضية إن (فاطمة) هي الجاني الحقيقي"

ـ "طيب يا ابني.. ثواني وجاية معاك"

حمل (إسماعيل) الصندوق، وتأهب للمغادرة لولا أن قبضة قوية باغتته بلكمة في وجهه على الفور بعد أن فتح باب الشقة، ارتمى إثرها للوراء دون أن يسقط، استنهض همته لرد ضربة أعنف لهذا الضخم الذي تعرف على وجهه بسلاسة، نشبت مشاجرة حادة بينهما بعد أن ألقى (إسماعيل) بصندوق الجواهر على إحدى الأرائك المنزوية بالردهة، بينما دخلت (فاطمة) في محاولة منها للاستحواذ على الصندوق، منعتها السيدة العجوز، لكنها لم تصمد أمام دفع الفتاة الفتية، انتبه (إسماعيل) للصندوق القابع في يد (فاطمة)، فأخرج سلاحه الميري وأطلق طلقة مدوية في الهواء، مما أرهب (فاطمة) وزوجها، طلب منها (إسماعيل) أن تضع الصندوق على المقعد المجاور لها، وأن يغادرا فوراً وإلا أطلق عليهما النار، فاستجابت الفتاة لأوامره في هلع، لم يلبث (إسماعيل) إلا أن هاتف الشرطة لإحضار قوة أمنية للمكان في محاولة منه للخروج الآمن مع الشاهدة المسنة، في حين أنه لم يلبث أن طارد هذا الضخم وزوجته قبل أن يلوذا بالفرار، لمح الضخم ممتطياً دراجة بخارية منطلقًا بها فراراً، طارده (إسماعيل) بسيارته في سرعة جنونية للحاق به، لم يفلت منه رغم عسر الطرقات في تلك الأحياء الضيقة، تعثرت مهمته عندما

اختبأ الضخم في ممر ضيق، ترجل (إسماعيل) من سيارته خلف المجرم الذي أفلح في الهرب مجدداً، فلم يجد (إسماعيل) بُدًا من العودة للسيارة والالتفات إلى نهاية الطريق من الجهة المقابلة، وبالفعل نجح في اللحاق به مرة أخرى إلا أن المجرم زاد من سرعته دون اكتراث فتبعه (إسماعيل) على نفس الوتيرة حتى اصطدم بسيارة قادمة من اتجاه معاكس كان الوقت قد فات على محاولة (إسماعيل) تفاديها، انقلبت سيارته بالهواء حتى طُرحت على ظهرها أرضًا، فقدَ (إسماعيل) وعيه مع تدفق دماء غزيرة من جسده الجريح على إثر الحادث.

تم إنقاذ (إسماعيل) في اللحظة المناسبة بعد أن أجريت له جراحة تلو الأخرى راقدًا بالمشفى لأيام، في خلالها تمكنت الشرطة من القبض على (فاطمة) وزوجها بعد أن استدلت عليهما بسهولة، اعترفت الفتاة بمسؤوليتها عن قتل (نجوان) بالسم الذي جلبه لها زوجها (حسن)، والذي عمل لسنوات كعامل نظافة بأحد معامل السموم، مما سنح له الحصول على مادة (الأرسينيك) التي استخدمتها (فاطمة) لقتل الضحية التي لم تحصل على مقابل لإحسانها سوى الكراهية والرغبة في الانتقام، انتقمت (فاطمة) لفقرها وحرمانها من صاحبة الفضل عليها، فكأن الثراء ذنبًا يستحق العقاب من أصحاب القلوب المغلفة بالحقد والجحود.

أغلقت القضية ببراءة (مازن) من قتل (نجوان)، إلا أنه لبث في ورطة قتل اللص (محمود) ولم ينج منها بعد الحكم عليه بالحبس.

"الحب ليس كلمة تقال في لحظات حانية، ثم تخبو مع علاقة تجف..

الحب سَكن يغتمر بالعطاء ويلتحف بالوئام وينعم بالتضحيات..

الحب نهر لا ينقض وجهة جريانه"

اشتباه

-27-

طال مكوث (إسماعيل) بالمشفى في وضعٍ حرج، أنقذته العمليات الجراحية من الموت المحقق دون أن يكتمل شفاؤه، اغتاله وضع جديد لم يعد العدة لمواجهته، كان دوماً يخاف من مغبة العمل في دائرة الشرطة المحتفة بالمخاطر، لطالما شعر أن حياته لن تكلل بالهناء والسعادة، كان ينتظر أي نهاية مأساوية تختاره مثلما اختارت من سبقوه من زملائه، وعلى الرغم من ذلك لم يتوانَ يوماً بأداء عمله بجد، لم يكن يكترث للعواقب رغم قلقه الدائم من مصيره المجهول، غدا الآن يرقد جامدًا على سرير يعجز أن يرفع قدميه عنه في إصابة قوية أعجزته عن الحركة، انطفأ عنفوان شبابه لتفتك به أضراس الموت البطيء، والغريب أن تتخلله راحة لم يعرف مصدرها أو كنهها، لعل سببها أنه على الأقل بات يعلم النهاية التي آل إليها، فكما يقولون وقوع البلية أفضل من انتظارها، نعم.. الانتظار غذاءُ الساعات وطعن المنتظرين بخناجر الخوف من المجهول، فما نخَشاه دوماً هو ما لم نتأهب له..

اجتمعت الصديقتان معًا تحت مظلة الأمل والرجاء وموجات من الصمود تتدافعانها معًا، لانتشال بعضهما البعض في مواجهة وخزات اليأس التي ما تكاد تنتزع إحداهما حتى تلقي براثنها على الأخرى، تبادلتا نوبات العطاء لهذا الراقد الجريح، وبعد مرور أيام من الركود المميت مرت بهما كأعوام قاتمة عادوا معًا إلى منزل (إسماعيل) متناوبتين في دفعه على كرسي متحرك.

كانت (نغم) قد عزمت قرارها الذي لم تعلن عنه من قبل، كان اختيارها مفاجأة لـ(إسماعيل) و(سلمى) بعد أن صارحتهما بأن حياتهم لن تكتمل إلا معًا، وأن سعادتها جزء لا يقتطع من سعادتهم، وبعد معارك ضارية مع نفسها التي كانت تنتصر لأنانيتها وتدعمها بحق ملكيتها لزوجها الذي لم تتقبل يومًا أن تشاركها امرأة أخرى في حبه حتى وإن كانت رفيقتها المقربة حد اللا مسموح، لم تكن (نغم) تدرك حجم إرادتها في كبح تلك البغضاء التي حفت بها (سلمى) كلما رأتها في ثوب الغريمة، كان إيمانها بقيمة الحب أشمل من أن تطمع بحقها الفردي دون مراعاة لمشاعر الآخرين مما سيودي بها إلى انتصار زائف، فأي نصر هذا الذي يزعم غلبته على سطوة القلوب! كما أنها كانت تؤمن بكينونة الحياة التي لا تنعم بالكمال المطلق، لذا كان عليها أن تعزم أمرها في الحفاظ على صورة مكتملة لحياتها دون انتقاص، فكان قرارها الأخير أن طلبت من (إسماعيل) أن يتزوج (سلمى) على أن يعيشوا معًا في بيت واحد، الأمر الذي أفجع (إسماعيل)، وبعد مهلة طويلة في التفكير، وبعد أن أعربت (سلمى) عن رفضها لـ(يحيى) الذي جدد عرضه للزواج منها مرة أخرى، احترم (يحيى) مشاعرها التي رجحت كفة (إسماعيل)، واختارت الحياة من أجله وحده دون غيره.

كان الإعداد للعُرس على قدم وساق بمشاركة جميع الأصدقاء، وقبل يوم واحد من الزواج، وردت مكالمة لـ(إسماعيل) من مساعده، أخبره خلالها عن وفاة (نادية مهران).. والدة (سلمى).. بعد تدهور حالتها بالعناية المركزة على مدار شهر، شطرت الحيرة عقل (إسماعيل) الذي أجبرته عواطفه على ضرورة الإفصاح لـ(سلمى) عن سر والدتها، انتهز الوقت المناسب لإخبارها:

- "(سلمى).. ممكن نتكلم؟"

- "آه طبعًا"

لم يجرؤ على التفوه بعد تمهُله لحظات مرت كالدهر، كانت ابتسامتها دافئة وعميقة، لم يجدرَ به أن يقتلع تلك السعادة المحلقة على ملامحها، كيفِ له أن يقتلها مرتين!؟ وكيف يتحمل إنسان على وجه الأرض أن يُفجَع بوفاة أمه مرتين، أمها الوهمية التي تعرفها أشد المعرفة، ونشأت في كنفها وكذا شهدت جنازتها، وأمها الحقيقية التي ماتت للتو، وعلى الفتاة مجابهة إحساس الفقدان مرة أخرى. طال صمت (إسماعيل) فسألته:

- "إيه يا حبيبي.. كنت عايز تقولي إيه؟"

- "كنت عايز أقولك إني أول مرة أحس بطعم السعادة"

- "وأنا كمان حسيت بنفس الإحساس أول مرة اتعرفت فيها على (نغم) وبعدين اتعرفت عليك"

- "هو دا بالضبط اللي كنت عايز أقوله.. أنا حاسس إن في إيد بتضم أرواحنا إحنا الثلاثة مع بعض.. إيد قدرية جمعتنا مش بس عن طريق مشاعر الحب اللي جوانا.. لكن كمان فيه كيميا واندماج بيحركنا ككيان واحد.. قبل ظهورك في حياتنا كانت علاقتي بـ(نغم) قايمة على الحب.. لكن دايمًا كنا بنحس إن فيها حاجة ناقصة.. ولما انت ظهرتي كأنك كملتي الناقص بروح دعم جديدة"

- "يمكن عندك حق فيما عدا إني كنت هتسبب في هدم حياة"

ـ "قبل الاعتراف كانت مشاعرنا مرتبكة، وكنا متشككين فيها ودا اللي كنت عايز أوصلهولك"

ـ "أنا كنت خايفة أوي من الفراق.. لكن (نغم) كانت أكتر واحدة فينا فاهمة طبيعة علاقتنا.. وأكتر واحدة قدرت تحس بقيمة المعنى اللي بيربطنا سوا.. والحمد لله إنها اختارت القرار المناسب"

ـ "واللي حرك (نغم) للمعنى دا قدرة أكبر منها ومنا.. في وقت كنا في قلة حيلة.. وهنموت من عجزنا على الاختيار.. وفي غمضة عين لقينا الحل.. دي مش قدرة بشرية يا (سلمى)"

اختُطفت عيناها بدموع براقة أفصحت عن ما يختلج بنفسها من رهبة أرجفت قلبها الممتن لرحمة القدر بها وحنوه عليها. ضمت عيناها ما عجزت عنه باقي الحواس، واستطاعت نظراتهما خلال تلك اللحظات أن تحكي سطور فصول قادمة من الوعد والوفاء.

مرت الشهور بعد زواجهما، وإقامتهم جميعًا ببيت (إسماعيل)، لم تكل إحداهما بالوفاء لهذا الحبيب المشترك الذي انتعش أمله رويدًا رويدًا.. حتى بدأ يتعايش مع حياة جديدة أشرقت بمحبة ألفت بين قلوبهم جميعًا، الحياة التى تطلعوا إليها من قبل هي ذاتها واقع يحيونه بلا ضغائن أو شك، أضيفت لها نكهة الأمل الجديد المتمثل فى هذا الرضيع الذي أنجبته (سلمى)، فرد جديد فى العائلة السعيدة أضفى ميلاده إشراقة متجددة بعثت الروح لأنفسهم المتقدة بالحياة، لتبدأ رحلتهم بمصافحة القدر لهم بنفس المصير الذي خططت له

(نغم) يوماً ما خوفًا من انتزاعات الفراق، لتتيقن أن لا شيء يكتمل بإرادتنا كبشر.. فبينما نسعى وراء رغباتنا نجدها تفر منا.. تأبى إلا أن تأخذ أمرها من مدبرها في الوقت الذي يضعه لها..

في إحدى نوبات التنظيف التي تستأثر بها (سلمى) مع كل عطلة، عثرت على جواز سفر محتجز أسفل قاعدة المكتبة الخاصة بـ(إسماعيل)، انتزعته بقوة دفعتها للاصطدام بالأرض بعد أن حررته، قلبت صفحاته لتقع عينيها على صورة المرأة التي لم تبارح ذاكرتها بين الحين والحين.. إنها ذاتها المرأة التي التقت بها في المقابر.. وكذلك هي نفسها التي أنكرت هويتها بصالة التمارين، والآن هي نفسها (نادية عبد الحميد وهدان) التي تطاردها أينما حلت.. فمن تكون!؟

لم ينتشلها أحد من حيرتها، خاصة (إسماعيل) الذي أضمر الحقيقة في نفسه ولم يعلن عنها قط، آثر الكتمان الآمن على الإفصاح المهلك، لطالما آمن بكل المعطيات، الايجابية منها والسلبية، ولكنه الآن رسخ إيمانه بتلك المقولة التي تبناها عقله منذ سنوات "كل معطيات اليأس أمامنا، وكذلك بقعة صغيرة من نور الأمل.. والاختيار دوماً بين أيدينا.. إن شئنا لاتسعت لنا تلك البقعة.. وإن اتسعت لاحتوتنا جميعا" والآن كان اختياره أن تتسع الحياة للأمل القادم بلا منغصات أو شوائب، تتدافعها رياح الماضي لتعكر صفو الكيان القائم تحت قيادته، والذي تعهد بحمايته حتى النهاية.

اشتباه

بسمة عبد القادر

أخذ يتأمل وجهها للحظات، كأنه أراد أن يسأل تلك الملامح التي بدت مألوفة الصورة لذاكرته عن هوية حاملتها ، قاده التفكير للعديد من المحطات في حياته لعله يهتدي للتذكر، ثم استوقفته الفكرة الأكثر منطقية بالنسبة له..

تصميم الغلاف: محمد مجدي



